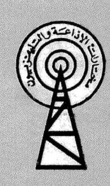
مذاهب وشخصيات



الحائز على جائزة نوبل للسلام
لعام ١٩٦١

دع قومي وشأنهم

البرت لوثولي

ترجمة : حسين الحوت
مراجعة : حمدي حافظ



اهداءات ٢٠٠١

المرحوم/ محمد راغب عباس

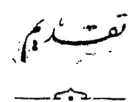
وكيل وزارة الثقافة سابقا

مذاهب وشخصيات

دع قومى وشأنهم

بقلم
البرت لوتولى

ترجمة : حسين الحوت
مراجعة: حمدى حافظ



الكتاب هو ترجمة حياة أفريقى بلغ من رجاحة العقل وسموالروح والخلق ومن التحلى بصفات الزعامة مكانا عاليا • ولقد اعترفت المحافل الدولية له بالفضل فمنحته جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦١ •

ذلك هو ألبرت لوتولى أعظم شخصية فى جنوب أفريقيا فى الوقت الحاضر . ولوتولى حفيد زعيم من زعماء قبائل الزولو التى تقيم فى جنوب شرقى أفريقيا •

اشتغل فى شبابه بمهنة التدريس وأحب مهنته حبا خالصا لأنه وجد فيها وسيلة فعالة لتنوير أذهان قومه الأفريقيين وتبصيرهم بحقوقهم التى اغتصبها البيض المسيطرون على جنوب أفريقيا •

وبعد فترة ، انتخب زعيما محليا فى منطقة جروتفيل ، وفى عام ١٩٥٢ أصبح زعيما للمؤتمر الوطنى الأفريقى وهو أكبر منظمة سياسية للأفريقيين فى اتحاد جنوب أفريقيا ، وظل يتولى رياسة المؤتمر حتى عام ١٩٦٠، حيث قررت الحكومة حل هذه المنظمة بعد حوادث شاريفيل •

وقد كرس لوتولى جهوده للدعوة الى تكوين مجتمع فى جنوب أفريقيا لايدين بمبدأ العنصرية المقيت ، على أن يقيم هذا المجتمع حكومة ديموقراطية من جميع العناصر التى يتكون منها سكان البلاد •

وأدت به مواقفه الوطنية الى السجن والابعاد مرات متعددة ، وهو اليوم يقيم فى جروتفيل لايبرحها بأمر من السلطات حتى عام ١٩٦٤ •

وبجانب وطنية لوتولى ، فهو مسيحى مخلص لعقيدته السليمة ، وهو يندد بالغربيين الذين فسدت مسيحيتهم لتهالكهم على المادة ، وحبهم السيطرة واعتقادهم الخاطىء بتفوقهم العنصرى •

***

ولما كان تاريخ حياة ألبرت لوتولى يرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف الاجتماعية والسياسية القائمة فى جنوب أفريقيا ، فانى أورد للقارىء نبذة عن تاريخ هذه البلاد ، حتى يستطيع تفسير تطورات الحوادث بها وخاصة فى السنوات الأخيرة •

يتكون اتحاد جنوب أفريقيا من أربعة أقاليم وهى الكاب وناتال والأورنج والترنسفال ، وعاصمة الاتحاد الادارية مدينة بريتوريا ، وبه من السكان ١٤ مليونا ، منهم ثلاثة ملايين من الأوروبيين وغالبية هؤلاء من البوير وهم سلالة هولندية والبقية من الانجليز ، أما الأفريقيون فيبلغون تسعة ملايين ونصف ويطلق عليهم اسم البانتو وهم قبائل متعددة من الزولو والباسوتو والسوازى والكسهوسا واليوندو ، وهناك مليون وربع من المليونين وهم من سلالات مختلطة ، وحوالى نصف مليون من الآسيويين ، وغالبيتهم من الهنود والباكستانيين .

أما تاريخ استعمار جنوب أفريقيا فيرجع الى سنة ١٦٥٢ عندما أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية مستعمرة صغيرة عند رأس الرجاء الصالح (الكاب) وفى القرن الثامن عشر حدث صدام بين البانتو والمستعمرين الهولنديين انتهى بهزيمة البانتو وارتدادهم الى الداخل • وبعد حروب نابليون أسس البريطانيون مستعمرة الكاب ، مما دعا المستعمرين الهولنديين الذين أطلق عليهم اسم البوير أو الافريكانر الى الهجرة نحو الشمال وتأسيس جمهوريتى الترنسفال والأورنج •

وفى سنة ١٨٩٥ نظم سيسيل رودس البريطانى مدير شركة جنوب أفريقيا البريطانية ، حملة ضد البوير فى الترنسفال عندما علم باكتشاف مناجم الذهب حول مدينة جوهانسبرج ، وقد أدى هذا العدوان البريطانى الى حرب البوير المشهورة فيما بين ١٨٩٩ ، ١٩٠٢ •

وبعد انتصار بريطانيا منحت جنوب أفريقيا استقلالا ذاتيا ودستورا ، وأصدرت بريطانيا قانون اتحاد جنوب أفريقيا سنة ١٩٠٩ وبمقتضاه تكون أقاليم جنوب أفريقيا الأربعة وهي الكاب وناتال والأورنج والترنسفال وحدة سياسية أطلق عليها اسم اتحاد جنوب أفريقيا وأصبح هذا الاتحاد عضوا في الكومنولث البريطاني .

والحزب السياسي الذي يتولى الحكم في اتحاد جنوب أفريقيا في الوقت الحاضر هو الحزب الوطني ورئيسه هو هندريك فرنش فيرفورد وهو أيضا رئيس وزراء الاتحاد .

ويدين الحزب الوطني بمبدأ التفرقة العنصرية المطلقة التي تقيم حواجز قوية بين البيض من البوير والبريطانيين وبين العناصر الأخرى من سوداء وهندية وحتى الملونة .

وقد أدى إمعان الحزب الوطني في تطبيق مبادىء التفرقة العنصرية والاجحاف بحقوق العناصر غير البيضاء في جنوب أفريقيا الى عرض الأمر على الأمم المتحدة في سنة ١٩٥٢ على اعتبار أن اجراءات البيض في جنوب أفريقيا تشكل خطرا على السلام وتعتبر انتهاكا لحقوق الانسان التي كفلها ميثاق الأمم المتحدة ، واتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا بتشكيل لجنة تحقيق تحت رياسة الدكتور بونش ، ولكن حكومة جنوب أفريقيا رفضت السماح لها بدخول البلاد ، وعلى الرغم من ذلك فقد أعدت اللجنة تقريرا استنكرت فيه سياسة التفرقة العنصرية في جنـــوب أفريقيا ودعت حكومة هذه البلاد الى تغيير سياستها .

واعتبرت حكومة جنوب أفريقيا هذا الاجراء الدولي تحديا لها فأعلنت انسحابها من الأمم المتحدة في نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

وفي سنة ١٩٥٧ ألغت العلم البريطاني وأقامت لها علما وطنيا خاصا ، كما أنها تهدد من وقت لآخر بالانفصال نهائيا عن الكومونولث البريطاني واعلان جمهورية بيضاء في جنوب أفريقيا تسيطر على المجموعات العنصرية الأخرى .

يبدأ البرت لوتولى حديثه بكلمة عن نشـأته بين قبائل الزولو ثم حياته المدرسية في معهدى ادنديل وآدامز ، وكيف كان على علاقة طيبة مع من بالمعهدين من طلبة ومعلمين ، ولكن الحزب الوطنى فى اتحاد جنوب أفريقيا وعلى رأسه فيرفورد يعترض على بقاء هذه المعاهد قائلا انها تخرج « الانجليز السود » ، ويسخر لوتولى من هذه الفكرة السخيفة لأنه رغم ماتلقى من ثقافة غربية على أيدى معلمين غربيين فانه يشعر فى قرارة نفسه أنه أفريقى لحما ودما وروحا ، وليس انجليزيا اسود كما يدعى خصومه .

***

يقول لوتولى أن حكومة البيض فى جنوب أفريقيا اختارت للافريقيين نوع التعليم الذى يجب ألا يتعدوه ، وهو بعض الحرف البسيطة ومبادىء القراءة والكتابة ، ذلك لأن مهمة الأفريقى فى الحياة هى قطع الأخشاب من الغابات وجذب الماء من المجارى المائية والآبار واذا فالتعليم بمفهومه العام ترف للأفريقى لاداعى له .

ولكى تحقق الحكومة هدفها من قصر تعليم الأفريقيين على الحرف ومبادىء القراءة والكتابة فقد أصدرت « قوانين تعليم البانتو » . ولما رأت أن هؤلاء الأفريقيين قد يتسللون الى الجامعات والمعاهد العليا أصـدرت ملحقا لقانون الجامعات حرمت فيه على أى أفريقى دخول الجامعة .

***

وقد تحدث أحد أعضاء برلمان الاتحاد (وهو من البيض طبعا) عن أهلية الأفريقيين للانتخاب فقال ان هؤلاء الأفريقيين لن يستطيعوا الأخذ بأسباب المدنية الحديثة الا بعد ألفى عام أما اليوم فهم همج ومتوحشون .

ويرد عليه لو تولى قائلا : اذا كان الغربيون مسيحيين فانهم استمدوا مدنيتهم من المسيحية ، والمسيحية لم تكن غربية النشأة بل انها نشأت فى الشرق الأوسط ، ولا يزال أصلها السامى ماثلا حتى اليوم . واذا ادعوا بأن مدنيتهم أصيلة فهم كاذبون لأنه قد سبقتهم الى المدنية شعوب البحر

الأبيض وبلاد بين النهرين والهند والصين ، وليست مدنية الغرب الانتاج تفاعل بين مدنيات مختلفة .

ويخلص لوتولى من هذا الى أن مالدى الغربيين من مدنيـــة ليست ملكا خالصا لهم دون غيرهم وانما هى حق مشترك لأفريقيا وآسيا كماهى اليوم ملك لأوروبا وأمريكا .

***

ويقول لوتولى ان مشكلة ملكية الأرض فى اتحاد جنوب أفريقيـــا هى أم المشاكل ، ذلك لأن الأفريقيين وهم يبلغون ٧٠٪ من سكان البلاد لايملكون من الأرض الزراعية الا ١٣ ٪ فقط ، وعلى حين أن العـــائلة الأفريقية بأكملها تملك بين أربعة وخمسة أفدنة ، تجد الفرد الواحدمن البيض يملك ٣٧٥ فدانا .

ويتساءل لوتولى كيف أن الأوروبيين يعيبون على الفلاح الأفريقى ضعف انتاجه الزراعى ، ويرد على هؤلاء قائلا : ان رفع مستوى الانتـــاج يقتضى وجود الآلات والمخصبات والثقافة الزراعية ، وأنى للفلاح الأفريقى الحصول على عناصر الانتاج وهو يعيش على أقل من مستوى الكفاف ، بل أن التعليم الذى كان من المحتمل أن يعينه على رفع مستوى انتاجه قد حرم منه بقوانين التعليم الجديدة .

ويقول لوتولى أن هؤلاء البيض بدلا من أن يرجعوا ضعف انتـــاج الفلاح الافريقى الى مستوى المعيشة المنخفض ، فسروا ذلك الضعف بأنه عجز طبيعى فى الافريقى لاسبيل الى علاجه .

ويعرض لوتولى فى كتابه للحرب العالمية الثانية وكيف أن حـكومة جنوب أفريقيا جندت رجال الدين لدعوة الافريقيين الى التطوع بحجة أن هتلر يبغى السيطرة على العالم ، واذا فيجب القضاء عليه .

وهنا يستنكر لوتولى التضليل القذر قائلا : كيف يحدثنا هؤلاء عن سيطرة هتلر ويتناسون مايفرضونه علينا من سيطرة ؟ وكيف يطلبون منا الدفاع عن الاستثمار وقد ذقنا منه الأمرين ؟ وعلى فرض أننا تطوعنـــا

فيما دورنا فى الحرب.؟ لن نحظى بشرف حمل البندقية ولكنهم يجندوننا لتقشير البطاطس فى المطابخ ورعاية البغال والخيل •

ويعود لوتولى الى الحديث عن هتلر فيقول أن حكومة جنوب أفريقيا أشاعت أن هتلر يدعى تفوق العنصر الجرمانى ، ولكن أليست هذه هى نفس دعوى بوثا وسمطس ومالان وفيرفورد وغيرهم من أبطال التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا •

يقول لوتولى : لو سألت الافريقى عمن يملك هذه البلاد لأجابك بأنها ملك لاربعة عشر مليونا من السكان يمثلون عناصر مختلفة وهم وان كانوا مختلفين فى الثقافة والعادات والتقاليد واللون فهم متســاوون فى الناحية الانسانية واذا فالارض ملك للجميع •

ولكن السادة البيض فى جنوب أفريقيا لايعترفون مطلقا بهذه الحقيقة وليتهم يقصرون الملكية على الأرض وحدها ، اذا لهان الأمر ، ولكنهـم يمدونها الى عشرة ملايين من الأفريقيين قائلين أن هؤلاء « السود » يعيشون على أملاك « الرجل الأبيض » .

ويرى لوتولى أن ماأصدرته حكومة جنوب أفريقيا من قوانين تحدد للافريقى محل اقامته ونوع عمله وبرنامج تعليمه ثم تسلبه أرضه ، هـذه القوانين ان لم تكن استرقاقا واستعبادا فهل بعد ذلك استعباد ؟

يقول لوتولى أن أول حركة منظمة قام بها الافريقيون للرد عـلى المستعمرين هى انشاء المؤتمر الوطنى الافريقى الذى يسـعى الى اشراك الافريقيين فى حكم بلادهم وتوجيه قوى التحرير وارشادها وتنظيـم المقاومة السلبية •

ويبين لوتولى أن المؤتمر ظل يتبع الوسائل السلمية حتى نفد صبره، فاتجه أولا الى حكومة الاتحاد التى أصمت أذنيها عن سماع شكواه واتجه بعد ذلك الى بريطانيا ولكن بريطانيا لم تفعل شيئا ، وأخيرا أعد حمـلة المقاومة التى نشرت الوعى الوطنى بين الافريقيين فى جميع أنحاء الاتحاد•

ولم تكن حركة المقاومة قاصرة على نشاط المؤتمر الوطنى وحـــده بل كانت بجانبه منظمات العمال والحزب الشيوعى .

ويصف ماتتخذته الحكومة من اجراءات تعسفية ضد الافريقيين ولكن هؤلاء لم ينثنوا عن عزمهم بل انهم ماضون قدما فى طريقهم حتى يتحقق لهم الهدف .

ويبين لوتولى أن المؤتمر الوطني دعا جميع سكان اتحاد جنـــوب أفريقيا باستثناء البيض الى مؤتمر شعبى تم انعقاده فى ٢٦ يونيو سنة١٩٥٥ وقد أصدر المؤتمر قرارات هامة أكد فيها أن جنوب افريقيا ملك لسكانه جميعا دون اعتبار عنصر أو لون أو دين وانه يجب قيـــام حكومة ديموقراطية تمثل جميع أبناء البلاد .

وقد كان لهذا المؤتمر صدى قوي فى جميع أنحاء جنوب أفريقيا .

ويتحدث لوتولى بعد ذلك عن الخلاف بين المؤتمر الوطنى الأفريقى ومؤتمر الجامعة الافريقية فيقول أن المؤتمر الوطني يطالب بحكومة تضم جميع عناصر السكان فى جنوب أفريقيا أما مؤتمر الجامعة الافريقية فيريد استبعاد غير الافريقيين من هنود وملونين ، ويعرب لوتولى عن أمله فى أن تتم تسوية هذا الخـــلاف ويتحقق توحيد الجهود فى ســبيل حركة التحرير التى هى الهدف الأسمى فى الوقت الحاضر .

فلينطلق قومى نحو هدفهم

مقدمة بقلم : تشارلس هوبر

من الصعب أن ندرك فى الوقت الحاضر من الذى سيتكلم باسم عشرة ملايين من الافريقيين الذين يعيشون فى اتحاد جنوب أفريقيا ، طالما حرم الافريقيون من حق الاقتراع لاختيار من يمثلهم فى الشئون العامة بحكومة الاتحاد ، وقد عمد حكام جنوب افريقيا البيض طوال عهدهم بحكم هذه البلاد الى اثارة الخلاف والتفرقة بين الافريقيين تطبيقا لمبدأ «فرق تسد» ووقفوا حائلا دون امكان الاتصال بين أى هيئة أو منظمة أفريقية والمجتمع الافريقى ، حتى لقد تصادف اليوم أن أفريقيين ممن يعملون فى مزارع البيض أو فى المناطق الخاصة بالجماعات الافريقية لم يسمعوا مطلقا بزعيمهم الوطنى ألبرت لوتولى .

لقد جذب مؤتمر «الجامعة الافريقية» أنظار العالم فترة ما وخاصة وقت حوادث اطلاق النار على الافريقيين فى مدينة شاربفيل ، ولكن هذه المنظمة الافريقية الكبرى لم تدم طويلا اذ أن حكومة الاتحاد ألغتها عام ١٩٦٠ ، ولذلك فلم تتح للمؤتمر الفرصة للتغلغل فى صفوف الجماهير واقتصر أمره على المدن . ولما بلغ نهايته العاجلة لم تكن حملته السياسية قد حققت نجاحا ملموسا ، ولم يكن قد هيىء الجو لظهور زعامة قوية تحمل علم الكفاح .

وهناك فى الجانب الآخر «المؤتمر الوطنى الافريقى» الذى يمثل عنصر المعارضة القوية لمبدأ التفرقة العنصرية ولمبدأ سيطرة البيض الجامحة على اتحاد جنوب أفريقيا ، ويمتاز المؤتمر الوطنى بأن أنصاره وأتباعه من من المدن الكبرى والصغرى والقرى والنجوع ومن الفلاحين والمثقفين ومن العمال وأصحاب الاعمال ومن الشباب والشيوخ ، ولم يقصر المؤتمر

الوطنى اتصالاته على الافريقيين وحدهم بل انه كون روابط وثيقة مع الهنود والباكستانيين فى جنوب أفريقيا وكذلك مع الملونين والأوروبيين القليلين الذين يعطفون على الأمانى الافريقية ويقدرونها .

ولقد تولى زعامة حزب المؤتمر ، البطل الافريقى ألبرت لوتولى وظل فى مركز الزعامة غير منازع عشر سنوات كاملة، بعد أن اختاره الافريقيون فى الاتحاد لتولى قيادتهم ، وأجمعت العناصر الاخرى من هندية وباكستانية وملونة على التعاون معه، وتحقق هذا الاجماع على قبول زعامة ألبرت لوتولى. وظل فى مركز الزعامة غير منازع عشر سنوات كاملة ، بعد أن اختاره الافريقيون فى الاتحاد لتولى قيادتهم ، واجمعت العناصر الاخرى من هندية وباكستانية وملونة على التعاون معه ، وتحقق هذا الاجماع على قبول زعامة ألبرت لوتولى رغم معارضة الدكتور هندريك فرنش فيرفورد رئيس وزراء اتحاد جنوب افريقيا واضطهاده ألبرت لوتولى والزج به فى السجن تارة وتحديد اقامته فى مسقط رأسه جرونفيل مرة أخرى .

هكذا أصبح لوتولى زعيم المعارضة الحقيقية «للسادة البيض» تلك المعارضة التى تضم الملونين من جميع العناصر فى اتحاد جنوب أفريقيا

ولم يكن اختيار الافريقيين ألبرت لوتولى للزعامة عبثا ، فالرجل يفيض حنانا وعطفا على قومه بل على كل ماهو أفريقى ، ولقد شهدت ذلك بنفسى ففى ذات يوم زارنا لوتولى وأحس الافريقيون بوجوده فتجمعوا أمام الدار لتحية الزعيم ، واستقبلهم الزعيم الافريقى هاشا باشا حنونا عاطفا وأخذ يوجه الحديث الى كل منهم على انفراد فيسأله عن حاله وحال آل بيته وأقاربه ، ثم أخذ يسرد عليهم قصص المجد الافريقى الغابر وخرج الزائرون من عنده وهم يمسحون دموع الاطمئنان والامل .

وشخصية ألبرت لوتولى تتمثل فيها كل الشخصيات الوطنية فى اتحاد جنوب أفريقيا تتمثل فيه شخصية أهل الريف والحضر والفلاحين والمزارعين والطلبة والمثقفين والزعماء والدهماء والشيوخ والشباب .. وعلى الجملة ففيه تتمثل الشخصية الافريقية الأصيلة فى القديم والحديث .

ومن السمات البارزة في ألبرت لوتولى ثقته في نفسه ، تلك الثقة التى لاترتكز على غرور أو كبرياء أو تعصب أعمى ، وانما منبعها نزعة انسانية حقيقية وتقدير لكل ماهو معقول ، تستمع اليه أحيانا وهو يقول: لقد قابلت اليوم فلاحا على محطة الاتوبيس وتعلمت منه الكثير عن تآكل التربة ، وهو موضوع كنت أجهله من قبل .

واذا كان الرجل متواضعا فهو لايقبل الذل والخضوع بأى حال من الاحوال ، وهو قد تزعم حركة مقاومة العنصر الابيض فى جنوب افريقية وكانت أقوى دوافعه المحافظة على كرامة الافريقيين أمام هؤلاء البيض . وهو هنا يقول : ان القوانين التى يصدرها الحزب الوطنى (حزب فيرفورد وجماعته) تهدف الى اذلالنا والحط من كرامتنا ، ولذلك فنحن نعترض عليها ونقاومها ، والواقع أن هذه القوانين تحط من شأن أولئك الذين وضعوها ، قد تضرنا هذه القوانين ولكنها لن تذلنا .

وألبرت لوتولى زعيم صادق الوطنية ولكنها ليست تلك الوطنية التى يفهمها الرجل الابيض مثل وطنية بوتا أو سمطس أو فيرفورد ويقصرونها على «العبد» الافريقى الذى يقدم ولاءه «لسيده» الابيض بل هى وطنية الرجل الذى يوزع تقديره واخلاصه على المجموعات العنصرية المختلفة التى يتكون منها اتحاد جنوب افريقيا ، وطنية تشمل الابيض والاسود والملون وابن المدينة والريفى ، وأخيرا فهى الحب الخالص «لافريقيا الأم» وشعوبها المكدودة من طول عهدها بالسيطرة الاجنبية .

كان رد حكومة فيرفورد على تحدى هذا الزعيم الافريقى لها أن قررت ابعاده ، لقد أبعدته مرتين من قبل وهى الآن تبعده للمرة الثالثة فى منطقة نائية بعيدة عن المجتمع الزاخر بالحوادث وسوف يظل فى منفاه هذا حتى عام ١٩٦٤ الا أن تتخذ الحوادث مجرى جديداً .

ان البوليس يتتبعه فى منفاه الجديد ويراقب تليفونه ويفتح رسائله ويفتش زائريه ، ولا يزال رجال البوليس يطرقون بابه بين آونة وأخرى سائلين : أين لوتولى ؟ ويلويله ان لم يكن فى الدار .

لقد ضيقت حكومة فيرفورد الخناق على الافريقيين ، وأصبح الابيض والاسود فى انحاء جنوب أفريقيا على طرفى نقيض ، كان هم الرجل الابيض فيما مضى أن يمتطي «الحيوان الصبور» أما اليوم وقد نفد صبر هذا الحيوان فلا بد من مجاريته • لقد أصبح الامل يتضاءل أمام الافريقى وينحدر به عاجلا نحو العبودية أو الموت • ذلك هو منطق « الاستعداد للحرب» الذى أعلنته حكومة فيرفورد ويدعمه التصريح الذى أصدره أحد وزراء جنوب أفريقيا حيث قال : أن مهمة الجيش فى حماية حدود جنوب أفريقيا مهمة ثانوية ، أما مهمته الاساسية فهى اصطياد تلك الجماهير السوداء •

وعلى الرغم من وجود لوتولى فى منفاه فهو ذو نفوذ قوى بين مواطنيه وهو لايزال رمزا قويا لحركة النضال التى تستهدف اقامة نظام جديد فى اتحاد جنوب أفريقيا أساسه التعاون بين المجموعات العنصرية المختلفة •

حقيقة أن الافريقيين يواجهون اليوم رفضا قاطعا من الحكومة لاجابة أى مطلب من مطالبهم ، وهذا ماأسفرت عنه المحادثات التى جرت أخيرا فى مؤتمر رؤساء وزراء الكومنولث ، كذلك تصر حكومة فيرفورد على أنه اما أن يخضع الافريقيون بمحض اختيارهم والا فانها سوف تخضعهم بالقوة • ولكن لوتولى لايتراجع ولا يتردد بل يطالب قومه بأن يسيروا قدما الى غايتهم ، ولا بد أن يجىء يوم يشعر فيه الافريقى بأنه اذا كان رجل السلام قد فشل ، فليتقدم رجل الحرب •

١ - موطن آبائي

في الوقت الذي حدثت فيه موقعة واترلو وما أعقبها من سقوط نابليون كان في بلاد الزولو أفريقي طموح اسمه شاكا أصبح في فترة اثنى عشر عاما أعظم ملوك الزولو حيث أدمج عدة عشائر وقبائل وكون منها أمة موحدة • وقد حقق الملك شاكا هدفه من الوحدة بوسائل عنيفة وان كانت في عنفها لاترقى الى مستوى ماترتكبه الدكتاتوريات الحديثة من منافية للانسانية •

وعلى الرغم من أن المؤرخين البيض في اتحاد جنوب أفريقيا قد اشتد افتراؤهم على شاكا فقد كان الرجل قائدا عظيما واداريا حكيما متصفا بالذكاء والشجاعة والكفاية ، ويكفي أنه استطاع أن يقاوم سلطان السحرة على شعبه ، والمعروف أن سلطان السحرة في افريقية أشد من قوى الجيوش والاسلحة ، كذلك استطاع شاكا أن يعيد تنظيم جيشه وتقويته بحيث اصبح أعظم قوة عسكرية في أفريقيا ، ولما استقر له الامر أخذت أطماعه تطوح به الى آفاق بعيدة فأنهك جيشه في الحروب وأصبح حاكما مستبدا ، ولما اشتد طغيانه اغتاله شقيقه دنجان •

وقد ورث دنجان ملكا عريضا امتد من سوازيلاند حتى ترانسكي ومن سلسلة جبال دراكنبرج الى المحيط الهندي ، وقد وفدت على مملكة دنجان جماعة من التجار البريطانيين ، وسمح لهم الملك بالاقامة في مايسمى الآن مدينة دربان في ناتال •

كانت أوروبا في ذلك الوقت مشغولة بتصفية المشاكل التي خلفها سقوط نابليون وكان المستعمرون البريطانيون في اقليم الكاب مشغولين بهجرة البوير الى الترنسفال وبحروبهم مع قبائل كسهوسا الافريقية ، ولذلك فلم يعبأ أحد بقدوم هؤلاء التجار البريطانيين أو بما سوف يؤول

اليه أمرهم في المستقبل ، أما انتزاع بلاد الزولو من أهلها وسيطرة الغرب على ناتال فكانت لاتزال سرا فى ضمير الغيب .

وفى عام ١٨٣٥ انضم الى فئة التجار والصيادين والمغامرين الذين يتكون منهم المجتمع البريطانى الصغير على ساحل «ناتال» فئة من المبشرين وهكذا وفد التاجر الانجليزى والمبشر الانجليزى، أما العلم الانجليزى فلم يأت دوره بعد .

وفى يناير ١٨٣٥ وفد على ناتال القبطان الانجليزى ألان فرانسيس جاردنر بعد أن تخلى عن العمل فى البحرية وجـــاء رائدا من رواد التبشير فى بلاد الزولو . وقد مثل بين يدى الملك دنجان وحاول ان يبين مهمته التبشيرية للملك ومستشاريه ، وفى النهاية أبلغه رجال الملك أن بلادهم ليست فى حاجة الى عقيدته التى جاء ليبشر بها ولكن لامانـع من بقائه بين شعب الزولو . وحبذا لو استطاع أن يعلمهم كيفية استعمال البندقية ، وأخيرا وافق الملك على اختيار القبطان ألان «شيخ البلد» فى مدينة دربان وكانت فى ذلك الوقت نجعا من النجوع الواقعة على حدود مملكة الزولو .

وفى نفس الوقت وفدت على المكان بعثة تبشيرية أمريكية استقبلها الملك دنجان بترحيب حار . وقد أدهش البعثة الامريكية مارأت عليه مجتمع الزولو من خلق متين حتى لقد كتب أحدهم الى أمريكا يقول انه يثق فى هؤلاء القوم (الزولو) لدرجة أنه يستطيع أن يترك أخته أوزوجته بينهم أياما طوالا دون أدنى خوف وقد استطاع أحد أعضاء البعثة الامريكية وهو المبشر ألدن جروت أن ينشىء مركزا لبعثته التبشيرية فى المـكان الذى يطلق عليه اليوم اسم جرونفيل ، وجرونفيل هذه هى مسـقط رأس ألبرت لوتولى وموطن آبائه .

وقد استطاع ألدن جروت فى مركزه التبشيرى الجديد أن يحول بعض الزولو من الوثنية الى المسيحية وأن يخلق بيئة مسيحية فى قلب بلاد الزولو ولكن الزولو وان كانوا قد اعتنقوا المسيحية فقد ظلوا محافظين

على خصائصهم الافريقية وعلى كل فقد أصبحوا زولو مسيحيين ، لا زولو وثنيين .

وكان هؤلاء المسيحيون الأول من الزولو مخلصين لعقيدتهم الجديدة على وجه العموم ، وهم يكنون حبا وتقديرا كبيرين لهؤلاء البيض الذين علموهم العقيدة المسيحية وما يرتبط بها من أساليب الحياة والتفكير ، ولكن لما كثر احتكاكهم بالبيض وأدركوا حقيقة أمرهم تبدد ما ران على قلوبهم من وهم وخداع . ويرجع السبب في عدم انتشار المسيحية بين الزولو أولا الى أن الافريقيين قد اكتشفوا أن البيض يقولون مالا يفعلون ، وثانيا لان حكومة جنوب أفريقيا تعمل على أن تتم تنمية الافريقيين في خدود أوضاعهم الخاصة ومعنى هذا عودتهم الى النظام القبلي الذي كان يسود مجتمعاتهم في القرن التاسع عشر وهذا مايتعارض مع التقدم الحقيقي كما يتعارض مع انتشار المسيحية .

ولما ازداد مجتمع جروتفيل نموا طلب المبشر جروت اختيار زعيم أفريقي للاشراف على المسائل الدنيوية لهذا المجتمع على أن يتفرغ هو للشئون الدينية ، وقد وقع الاختيار على تتابا لوتولي وهو جدي . ولا أعرف الكثير عن هذا الجد ، وكل ماأعلم أنه هو وزوجته تيتيس كانا أول من اعتنق المسيحية من الزولو على أيدي القس جروت وانهما كانا مخلصين لعقيدتهما الجديدة .

وعلى الرغم من ولاء جدي لعقيدته الجديدة وللبيض الذين يمثلونها فما كان ليتخلى عن تقديم ولائه الاول لبني قومه الافريقيين . ذلك انه في أثناء احدى المعارك التي دارت بين البريطانيين والزولو ، طلب اليه أن يدعو بالنصر لقوات جلالة ملكة بريطانيا ، ووقف الرجل حائرا ثم هتف أخيرا : ياالهي ! احفظ بعنايتك ضحايا العدوان في هذه الحرب .

وبعد تتابا لوتولي تولى رياسة مدينة جروتفيل عمي مارتن وكان ذلك عن طريق الانتخاب لا التعيين .

وفي عام ١٩٢١ تولى جو سيا مكيبا رياسة مدينة جروتفيل ، ثم تولبتها بعده في عام ١٩٣٥ .

٢ – نشأتى المسيحيه

كان أبى جون لوتولى وقد مات وعمرى ستة أشهر ، أما أمى فهى متونيا وقد نشأت فى بلاط الملك ستيوايو حفيد الملك دنجان الذى سبق ذكره . وقد هاجرت أمى مع جدتى من بلاد الزولو الى ناتال وأقامت فى جروتفيل حيث تزوجت من والدى .

ولما انتقل والدى للعمل فى روديسيا لحقت به أمى وهناك توفى والدى ودفن قرب مدينة بولاوايو ولست أعرف بالدقة تاريخ مولدى غير انه يغلب أن يكون حوالى عام ١٨٩٨ .

وحوالى عام ١٩٠٩ غادرنا روديسيا وانتقلنا الى ما أصبح يسمى اتحاد جنوب أفريقيا ، وقد زرنا جروتفيل ثم استقر بنا المقام فى شمال ناتال ، وكانت مهمة شقيقى أن يعمل مترجما للبعثة التبشيرية أما انا فكانت مهمتى العناية ببغال البعثة . ولما كانت أمى واسعة الأفق فقد أصرت على أن أنال حظا من التعليم ولذلك عدت الى جروتفيل لأكون فى رعاية عمى مارتن وأحصل على نصيبى من التعليم .

وفى مجتمع جروتفيل لاحظت ظاهرة غريبة وهى أن هذا المجتمع مكون من مسيحيين ووثنيين وهناك فروق واضحة فى أسلوب حياة كل طائفة، ولكن ليس بينهما أى تفرقة فى المعاملة ولا فى الأوضاع الاجتماعية أو القانونية ، ذلك أن أولئك الذين تلقينا على أيديهم التعاليم المسيحية لم يعلمونا أن المسيحيين أفضل من غيرهم .

ولما عادت أمى الى جروتفيل انتقلت من دار عمى مارتن لأقيم . وهنا أدركت كم كانت أمى تقاسى شظف العيش وكم كانت تكدح فى سبيل الحصول على القوت . كانت لها مزرعة صغيرة بجوار القرية تقوم بفلاحتها بنفسها ، كذلك كانت تمشى خمسة أو ستة أميال الى مدينة ستانجر لغسل ملابس الجاليات الاوروبية فى مقابل بضع شلنات .

هكذا استطعت أن أنال حظى من التعليم بفضل جهود أمى وعرقها

تلقيت تعليمى الاول فى معهد أوهدنجا ومن هناك انتقلت الى معهد أدنديل قرب بيترمارتزبورج ٠

كان معلمونا فى معهد أدنديل من الاوربيين ولم نكن نشعر بحقيقة مايدور فى نفوسهم نحونا وما كان لنا أن نستشف دخيلة هذه النفوس ، وحسبنا منهم أنهم يعلموننا ، ولكن فى ذات يوم قمنا فكلفتنا المدرسة بحمل الاحجار من النهر الى المدينة كنوع من العقوبة ، ولما رفضنا الامتثال للامر هددنا مدير المدرسة بالطرد ٠ فحزمنا أمتعتنا وغادرنا المدرسة ، لم يعترض الناظر على عملنا هذا لانه كان يعرف النتيجة الحتمية ٠ ذلك أننا فى طريقنا بيترما رتزبورج سوف نجد البوليس فى انتظارنا ، ولاول مرة فى حياتى أدرك مايتتاب الافريقى من شعور الفزع عند ذكر اسم البوليس ٠

وبسبب شعور الفزع من البوليس عدنا الى ادنديل مرة أخرى ٠

وفى أدنديل درست عامين اضافيين للتأهيل لمهنة التعليم ، وأذكر أن معلمينا كانوا أهل جد ونشاط وكنا نستفيد من دراستنا كل الفائدة ٠ وفى أدنديل أحببت مهنة التعليم وكان أملى أن أكرس حياتى لها ٠

وبمناسبة الحديث عن ادنديل أود أن أعرض هنا لتلك الضجة المتعلة التى يثيرها فيرفورد وحزبه الوطنى حول معاهد أدنديل وآدامز والقديس بطرس وروزتنفيل وأمثالها ٠ انهم يقولون ان هذه المعاهد تخرج الانجليز السود كما تنتج المعلمين الافريقيين البيض ٠

وأتساءل : لماذا يعترض فيرفورد وجماعته على هذه المعاهد ؟ انها ملتقى ثقافتين : الافريقية والاوربية ، ولا بد لكل منها أن تتأثر بالاخرى وفى ذلك فائدة للطرفين ٠ لقد تلقيت تعليمى فى معهدى أدنديل وآدامز على أيدى معلمين أوروبيين ، وانا أكن لهم احتراما عميقا ، ولكن هذا لم يحولنى عن افريقيتى فأنا رغم تعليمى على أيدى الاوروبيين أتحدث كما يتحدث الافريقيون وأتصرف كما يتصرفون وأفكر كما يفكرون وأعبد الله بصفتى أفريقيا من عباده ، واذا فلست انجليزيا اسود كما يدعى فيرفورد وجماعته ، بل انا أفريقى لحما ودما وروحا ٠

٣ ـ الحياة فى كلية آدامز

أنشأت وزارة المعارف قسما عاليا للمعلمين بكلية آدامز فالتحقت به من فورى لانى كما قلت من قبل قد أحببت مهنة التعليم ، وكانت أبواب التعليم مغلقة فى وجه الافريقيين باستثناء التعليم المهنى واعـــداد المعلمين وصغار رجال الدين والكتبة .

وفى كلية آدامز بدأت أدرك معنى الحياة ووســـائل كسب العيش وهالنى ما اكتشفته من ضخامة ثروة البلاد ووجود هذه الثروة فى أيد غير أفريقية . وهنا عللت النفس بأن اتخذ من مهنة التعليم وسيلة لتبصـــير بنى قومى بحالتهم عسى أن يجدوا مخرجا مما هم فيه من تعاسة .

كانت كلية آدامز فى ذلك الحين تقوم بتجربة استخدام الافريقيين فى اعداد المعلمين ولذلك رشحتنى أنا وزميـــــلا آخر لاعداد المعلمين وقد كلفتنى بتعليم لغة الزولو والموسيقى والادارة المدرسية ، وبعد فترة طويلة من الاشتغال بالتعليم فى كلية آدامز رقيت الى وظيفة مفتش تعليم .

تعليم الافريقين فى ناتال

عندما عينت معلما بكلة آدامز للمعلمين كانت نظم التعليم فى ناتال تمر بفترة تغير كبير ، وكان القائم بهذه الحركة التعليمية الجديدة هـــو الدكتور لورام الذى عين مفتشا أول لتعليم الافريقيين فى ناتال ، كانت نظم التعليم قبل عهد لورام تسير على أسس عادية لافرق فيها بين تعليم البيض وتعليم السود ، ولكن الدكتور لورام جاء بخطة جديدة تهدف الى توجيـــه الافريقيين نحو التعليم العملى ، وكان الغرض من هذه الخطة اعداد أبناء السود لنوع المعيشة الذى اختارته لهم حكومة جنوب افريقيا البيضاء ولما كان أبناء السود فى الحياة هو قطع الاخشاب وجلب الماء من المجارى المائية والآبار فمهمة التعليم أن يهيىء أبناءهم لكسب العيش عن هذا الطريق .

لاأدرى أن كان الدكتور لورام لم يدرك أن خطته التعليمية هذه

تنطوى على أفق ضيق محدود لابناء الافريقيين أم أنه كان مجـرد أداة تنفيذ لرغبة غالبية العنصر الابيض فى جنوب أفريقيا • على كل ، اسفرت خطته الجديدة عن نتيجتين : أولاهما أن القراءة والكتابة أصبحتا ترفا بين السود وثانيتهما أن الجانب الأكبر من اليوم المدرسى خصص للعمــــل اليدوى وتعليم الحرف التافهة •

وقد استطاع الدكتور لورام فى الفترة التى قضاها بيننـــا أن يثبت أسس خطته الجديدة التى تتلخص فى تربية أبناء الافريقيين «طبقـــا لاوضاعهم الخاصة» وقد أصبحت نظمه التعليمية ركنا من أركان سياسة التفرقة العنصرية فيما بعد •

كان عملى كمدرس فى كلية المعلمين يستغرق الجانب الاكبر من وقتى ، ولكنى استطعت أن أستخلص بعض فترات لأدرس اللاهوت وعلم الاجتماع والفلسفة السياسية •

وفى عام ١٩٢٨ أصبحت سكرتيرا لرابطة المعلمين الافريقيين وفى ١٩٣٣ أصبحت رئيسا لهذه الرابطة • وبحكم عملى فى رابطـة المعلمين الافريقيين اشتركت فى تنظيم «حركة المقاطعة» وكان أول ماقمنا به فى هذا السبيل مقاطعة مدارس الشتاء التى أنشأها الدكتور لورام • كذلك دعوت الى انشاء جمعية الزولو الثقافية وكان اعتقادى حينذاك ، كما هو اعتقادى الآن أنه لابد وان تنشأ ثقافة خاصة بجنوب أفريقيا وان تكون لغة الزولو من مقومات هذه الثقافة • لقد كنا معشر المعلمين ندرك تمـــاما مالالتقاء الثقافتين الاوربية والافريقية من أثر ، كما كنا ندرك أن الغلبـة سوف تكون للثقافة الاوربية ، ولذلك وجهت اهتمامى لاحياء لغة الزولو وآدابها حتى يكون هناك نوع من التوازن بين العناصر المكونة للثقـــافة الافريقية التى ننشدها •

هكذا يرى القارىء أن هدفنا كان ولا يزال امتزاج الثقافتين بعـد أن نخلص ثقافتنا الافريقية من العناصر غير الصالحة، ولكن البيض لايريدون لنا ذلك ، وانما هدفهم هو أن نعود الى حياتنا البدائية ، ولما كان قومى

غير قادرين على استيعاب مدنية المجتمع الصناعى فى القرن العشرين فان خير وسيلة أمامهم هى ربط الماضى ربطا وثيقا بالحاضر والمستقبل •
ولقد ازدهرت ثقافة الزولو وآداب الزولو ولغتهم فترة من الزمن ، ثم عدت عليها يد وزارة شئون الافريقيين فاضمحلت وانسحب منها المعلمون الوطنيون وذهبت فى زوايا النسيان أما عن النشاط الرياضى فى الكلية فلم آخذ منه بنصيب كبير غير أنى وجهت بعض الاهتمام لمباريات كرة القدم، وذلك تمشيا مع الروح العامة التى تسود الشباب الافريقى ، وأصارحك القول أنه كلما آجريت مباراة بين فريق من جنوب افريقيا (وهو من البيض طبعا) وفريق أجنبى زائر كنت أتمنى فى قرارة نفسى هزيمة فريق جنوب أفريقيا • ولم يكن هذا شعورى أنا وحدى بل كان شعورا عاما بين مواطنى من الافريقيين ، فما لنا ولانتصار فريق رياضى لقوم يقيمون بينهم وبيننا حاجزا منيعا من العنصرية الكريهة •

ومن مزايا كلية آدامز أنها أتاحت لى ولأمثالى من الأفريقيين الاتصال بأكبر عدد ممكن من الرجال كبيرهم وصغيرهم ، عظيمهم وحقيرهم ، ولما كانت كلية آدامز مؤسسة أمريكية فقد هيأت جوا من حرية الرأى والمناقشة ، كما انها كانت مرآة تنظر فيها صورة العالم الخارجى •

كان من الرجال الممتازين الذين نعمت بصحبتهم فى كلية آدامز البروفسور ماتيو مدير المدرسة العليا ، ولم يدر بخلدى حين عرفت هذا العالم الفاضل انه يوما ماسوف يسحب سحبا من مكتبه فى كلية فورت هير الجامعية بتهمة الخيانة العظمى وانا وبعض مواطنى الافريقيين فى صحبته ان هذا الرجل فضل الاستقالة والتنازل عن مكافأة تبلغ سبعة آلاف دولار على الخضوع لتلك المهزلة التى أثارها « قانون الجامعات المنفصلة » •

وممن اتصلت بهم فى الكلية الدكتور بريكنر وقد تعلمت منه حكمة لن أنساها طول حياتى فقد كان دائما يقول : لاتستنكر سلوك انسان حتى يتبين لك خطؤه •

ومن الشخصيات الغريبة التى اجتمعت معها فى الكلية رجـــل من البوير يدعى دى فيلبيه كان هذا الرجل على غير عادة قومـــه يكثر من الاختلاط بنا نحن الافريقيين ، ويجرى معنا مناقشات فى المسائل العيصرية وكنا نأنس له كثيرا وهو بدوره كان يرتاح الى وجوده معنا ، ولقد أثار فضولى اختلاط دى فيلبيه بالافريقيين خلافا لما جرى العرف عليه ولكنه رد على قائلا : اذا رأيت أحدا من البيض فى جنوب أفريقيا ذا رأى حر فاعلم أنه ماوصل الى هذا المستوى من التفكير الا بعد جهد وندم شديد، ذلك انهم ينشئوننا على كره السود واحتقارهم وعلى أن هؤلاء الســـود عنصر مخالف لنا كلّ المخالفة .

لم أكن حتى ذلك الوقت أتصور أن هناك فريقا من المجتمـــع الانسانى يلقنون أطفالهم الحقد والكراهية واحتقار البشرية فى شـخص الآخرين حتى التقيت بهذا الرجل الذى فتح أمـام ناظرىَّ بابا كان من قبل مغلقا ، ولقد حاول دى فيلبيه أن يعتذر عن قومه من البوير قائلا أن نشأتهم الخاطئة نتيجة لظروف تاريخهم لانهم كانوا ضحية الاســتعمار الانجليزى ، وعلى الرغم من أن هذا الرجل يحاول تبرير موقف البوير وتجنيبهم مسئولية التفرقة العنصرية فقد وجدت فى نفس بعض الميــل لتصديقه وذلك لما شاهدته فى السنوات الأخيرة من خـــلاف كبير بين العناصر البيضاء التى تكون حكومة اتحاد جنوب افريقيا .

والذى أثار حيرتى فى أمر هذا الرجل أنه أصبح وزيرا لتعليــم البانتو فى الحكومة القائمة ، وبذلك فهو من العاملين على تقويض دعـائم تعليم الافريقيين ، فماذا جرى ؟ هل كان ندم الرجل زائفا وانه عاد الى طبيعته العنصرية المقيتة ؟ .

ان لدى أسئلة عدة أود أن أوجهها الى مسيو دى فيلبيـــه جراف لأعرف منها السبب الذى حدا به الى تغيير موقفه الى النقيض . أود أن أستفسر منه ، كيف يوفق بين ماضيه وحاضره . وكيف يتحدث بالامس عن الفكر الحر ويعود اليوم الى التعصب العنصرى الكريه .

ومن بين الذين التقيت بهم فى كلية آدامز الدكتور آجرى وهو رجل كان يسحرنا بقوة بيانه وكان يذكرنا دائما بما سوف يحققه جنسنا الأسود من رفعة ومجد ، ولكنه كان يدس علينا آراء شاذة دهشت لها حينذاك وأعلن استنكارى لها اليوم . كان الدكتور آجرى يقول لنا : خذوا مايقدمه البيض لكم حتى ولو كان كسرة خبز حتى اذا ماحصلتم على مافى الكسرة من فائدة طلبتم المزيد .

أنا لاأوافق الدكتور آجرى على رأيه الذى يدعونى لقبول أى شىء لان هذا يقتضى ضمنا أن أقبل التفرقة العنصرية ، وواجبى الوطنى يحتم على أن أنظر الى مايقدم لى قبل أن أوافق على قبوله . ان هذه التفرقة العنصرية لاتقدم لنا خبزا بل أحجارا .

ومن ذكرياتى عن الفترة التى قضيتها فى كلية آدامز حادثة مثيرة للفكاهة والسخرية فى نفس الوقت . فقد زار الكلية قس انجليزى اسمه تايلور ، بمناسبة اليوبيل الفضى للملك جورج الخامس ، واندفع مستر تايلور فى حماس خطابى يذكرنا بمآثر الأسرة المالكة البريطانية ويقارنها بملوك الزولو وأسرهم الملكية . وبعد قليل توفى جورج الخامس وتولى ادوارد الثامن ثم تنازل عن الملك بما اعتبرناه نحن الافريقيين فى ذلك الوقت فضيحة ملكية ، فقمنا بمظاهرة أخذنا نهتف خلالها : أين مستر تيلور ليحدثنا عن الاسرة المالكة البريطانية .

٤ ـ لا رعى فى مراعى البيض

كانت زوجتى حفيدة أحد زعماء الزولو ، وقد وفد والدها على جروتفيل حيث اعتنق المسيحية على أيدى البعثة التبشيرية ، ثم تم التعارف بينى وبين نوكوكانيا بنجو وتزوجتها •

كانت نوكوكانيا لى نعم الزوجة فعلى الرغم من حياتى المضطربة من سجن الى نفى الى اتهامات بالخيانة العظمى ، فلم أسمع منها يوما أى عبارة تدل على التأفف والضجر •

ولم تقف جهود زوجتى عند الخدمة المنزلية ، بل تعدتها الى النشاط الخارجى فقد قامت بدعاية بين نساء جروتفيل لجمع الأموال اللازمة لافتتاح عيادة ، وتم جمع المال فعلا ولكن ادارة شئون الافريقيين أوقفت العمل بحجة أن الافريقيين لايستطيعون رعاية شئونهم بأنفسهم وان هذا الامر من اختصاص السادة البيض •

تم زواجى من نوكوكانيا عام ١٩٢٧وفيما بين ١٩٢٩ــ١٩٤٥ أنجبت زوجتى خمس بنات وولدين •

أثناء اقامتى فى كلية آدامز مع البروفسور ماتيو كنت أشعر أن أبواب الامل مفتحة أمام الافريقيين ، وما عليهم الا أن يثبتوا جدارتهم وكفايتهم حتى يصبحوا مواطنين صالحين • حقيقة كانت هناك حواجز عنصرية ولكنها كانت على درجة مخففة لم تتصور أنها سوف تبلغ ما بلغته أخيرا من وطأة ثقيلة وخاصة فى السنوات العشر الاخيرة •

هذا كان عهد شبابنا ، أما أبناؤنا فقد ولدوا فى عهد التعاسة الذى سادت فيه نزعات التفوق العنصرى بين البيض ، فالافريقى يعلم منذطفولته أنه مهما بلغ من ادراك للقيم التى تأخذ بها المدنية الحديثة فان ذلك لن يكون مبررا كافيا له كى يكون انسانا ذا مسئولية مدنية كاملة

وليدعنى القارىء أستطرد قليلا لأتحدث عن موقف الافريقيين من

المدنية الحديثة . لقد تحدث أحد أعضاء الحزب الوطني في برلمان الاتحاد فقال ان الافريقيين لن يكونوا أهلا للأخذ بأساليب المدنية الحديثة الا بعد ألفي عام أي في عام ٣٩٦٠ وحتى ذلك الوقت لن يسمح لهـــم بحق الانتخاب .

ويستند البيض في دعواهم هذه الى أنهم هم لم يبلغوا هذا المستوى الحضاري الا بعد ألفي عام . وبما أن الافريقيين كانوا همجا متوحشين منذ مائة عام مضت فلا بد وان تمضي ألفان من السنين حتى يبلغوا ما بلغه البيض .

هذه الدعوى باطلة وهي لم تجيء عن طريق استقراء للتاريخ وانما هي وسيلة يبررون بها ذلك المسلك الذي اتخذوه ، فالبيض افترضوا أولا أنهم «متدينون» وان السود « همج » وانه لابد أن تمضي فترة قدرها ألفا عام حتى يتحول هؤلاء الهمج الى متمدينين . وبعد أن وضعوا القاعـــدة أخذوا في التطبيق .

أنا لاأعترف مطلقا بأن جنوب أفريقيا البيضاء قد بلغ مستوى عاليـا من المدنية بعد هذه الرحلة الطويلة منذ ألفي عام أي منذ بداية عهـــد المسيحية ، كما أقرر أن مايفعله هؤلاء البيض الآن ليس من شأنه أن يزين المسيحية بل أنه يشينها ، وعلى فرض أن هؤلاء البيض في جنوب أفريقيا كانوا مسيحيين حقا وأهل فضيلة حقا ، فهناك حقيقة كبرى وهي أن العقيدة المسيحية لم يكن منبتها الاصلي أوربا بل الشرق الأوســط وهي حتى اليوم تنطق عن أصلها السامي ، كذلك المدنية الغربية ليست كلها غربية خالصة . بل هي نتائج « تفاعل » بين مدنيات عديدة وشعوب مختلفة وهذا «التفاعل» يقوم على التبادل أي الاخذ والعطاء وهذا بعكس ماتدعو اليه التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا من ابتعاد وانفصالية .. والكل يعلم أن لفظ Apartheid يقابله في الانجليزية Aparthood أي الانفصال والابتعاد .

وأخيرا فان مايسمى بالمدنية الغربيـــة اليوم هو في الواقع تراث

انسانى وليس حكرا للغرب وحده ، وانى أعلن بلا تردد أن هذه المدنية حق لأفريقيا وآسيا كما هى حق لاوربا وامريكا ، واذا كان الغرب قد جاءنا بالخير فقد جاءنا أيضا بالشر . وأخيرا فان قومى لم يقصروا فى الاخذ بأسباب هذه المدنية الغربية .

القانون الخاص بتعليم البانتو

ان حكومة البيض فى اتحاد جنوب أفريقيا تريد العودة بنا الى الوراء ألفى سنة حتى نبدأ ارتقاء سلم المدنية من الدرجة السفلى . وفى سبيل تحقيق ذلك صدر قانون تعليم البانتو عام ١٩٥٤ ، انه قانون غريب وضعه الأوربيون لتعليم الأفريقيين . انه قانون وضعته السلطات الحاكمة لتحديد العلاقة بين السيد والخادم .

عندما اتيحت الفرصة أمام الافريقيين ليغترفوا من مناهل العلم فى الخارج لم يظهروا أى عجز أو تقصير وتخرج منهم محامون وأطباء ومعلمون ، ووقف الكثير منهم على أسرار الثقافة الغربية دون أن الى ألفى عام كما زعم السادة البيض فى جنوب افريقيا . ولكن ما أحرزه الافريقيون من نجاح أثار نوعا من التوتر فى جنوب أفريقيا وفسرته العناصر البيضاء فى هذه البلاد بأنه عدوان على مستوى معيشتها وتهديد لحكومة الرجل الابيض ، ومن هنا بدأت تغلق باب التعليم بعنف فى وجه الأجيال الجديدة من النشء الافريقى وأعدت النظم التى تستطيع بها أن ترغمنا على الرضا الدائم بهذا المستوى المنخفض والعزلة الدائمة عن حضارة الغرب وثقافته .

لقد كان هذا دائما هدف الحاكم الابيض منذ اعلان الاتحاد عام ١٩٠٩ حتى الآن ، أما قانون تعليم البانتو فهو حلقة قوية من حلقات هذه السلسلة .

أنا لاأنكر أن هذا القانون به بعض مزايا قليلة ، ولكن القانون فى

مجموعه ذو هدف سياسى لاتعليمى . انه آله طيعة فى يد «السيد الابيض»، يستطيع به اخضاع خادمه الأسود والتحكم فيه .

فيرفورد وقانون تعليم البانتو

ان العنصر الاساسى وراء اصدار هذا القانون هو هندريك فرتش. فيرفورد رئيس وزراء اتحاد جنوب أفريقيا فى الوقت الحاضر . وعند صدور هذا القانون أوضح فيرفورد بما لايدع مجالا للشك أن النظام الجديد قد وضع لان النظام التعليمى السابق قد انتج عناصر «شاذة» أو بعبارة أخرى أنتج «الانجليزى الاسود»الذى اكتسب أفكارا وآراء جديدة. تتعارض مع دور التبعية الذى أعددناه له . وأخيرا قال فيرفورد عبارته المشهورة : ان هذه السائمة الغريبة لايصح أن ترعى فى مراعى البيض.

كان هدف فيرفورد الصريح من هذا التشريع أن يخرج للمجتمع أفريقيا لامطمع له فى هذه البلاد (جنوب أفريقيا) أكثر من عمل حرفى أو وظيفة كتابية صغيرة ، وصرح فيرفورد بأن هذا هو «أقصى ما ينبغى أن يحلم به الافريقى» ، وتحقيقا لهدفه وضع كل المدارس القائمة فى الاتحاد حتى المدارس الخاصة والمدارس التابعة للكنائس تحت اشراف. حكومى دقيق يمكن الاطمئنان اليه فى تنفيذ قانون تعليم البانتو بكل دقة لابل انه ذهب الى أبعد من ذلك فاعتبر أن قيام أحد البيض بتعليم أحد أبناء السود تعليما خاصا مخالفة قانونية ، واذا همت سيدة بيضاء بتعليم خادمتها السوداء الأبجدية فهى قد خالفت القانون ، وقد أدلى الدكتور فيرفورد بحديث طويل عن هذا القانون أدرك الكل بعد سماعه أن المقصود بهذا القانون هو «خلق» افريقى جديد طبقا للصورة التى رسمها له فيرفورد فى خياله .

فيرفورد والجامعات

لم يكتف فيرفورد بقانون التعليم العام للبانتو ، اذ قد يستطيع بعض أبناء الافريقيين التحايل على القانون وطرق أبواب الجامعات ، ولذلك أتبعه

يملحق لقانون التعليم الجامعي • ومن شأن قانون الجامعات الجديد أن يحرم على الافريقيين دخول الجامعات القائمة في اتحاد جنوب افريقيا ، واذا أرادوا مواصلة دراستهم العليا فعليهم أن يلتحقوا بكليات خاصة بكل مجموعة عنصرية ، بل بكل جماعة قبلية ، ومعنى ذلك أن المسألة لن تقتصر على ألا يجتمع الطالب الافريقي مع الطالب الاوربي على صعيد تعليمي واحد بل انه بين الافريقيين أنفسهم لايجتمع افريقي من الكسهوزا مع افريقي بتشواني ، كما لايجتمع افريقي من الزولو مع افريقي من السوازي •

ان هذه الكليات القبلية قد أنشئت في المناطق المخصصة للبانتو ، ولو طبقنا عليها المعايير الانجليزية لقلنا أن أبناء كورنوول وايرلنده وويلز واسكتلنده مرغمون على دخول كليات عنصرية خاصة بهم أما جامعات اكسفورد وكمبردج ولندن فهي قاصرة على الانجليز فقط •

وأنا لاألقي القول جزافا أو أتحدث من وحي الخيال فهأنا أنقل لك تصريحا لمستر ماري وزير تعليم البانتو في حكومة فيرفورد حيث يقول : « ان هدف قوانين التعليم الجديدة أن تخرج لنا زعماء وطنيين يقبلون مبدأ التفرقة العنصرية «انها عملية تلقين مذهبي» تقوم به حكومة الاتحاد ، ولكن لن يقدر له النجاح ، اذ كيف تستطيع حكومة لاتمثل الا ثلاثة ملايين من سكان جنوب افريقيا أن تستعبد عشرة ملايين استعبادا فكريا وروحيا ؟ •

ان حكومة الاتحاد تضلل عندما تعلن انها تريد خلق زعماء من الافريقيين ، والحقيقة أنها تخلق زعماء بلا زعامة ، أو بمعنى آخر زعماء يرددون صداها ويستجيبون لندائها •

كان الافريقيون قد بدأوا يتخلون عن ولائهم القبلي ويتجهون باخلاص نحو دولة تمثل جنوب أفريقيا في جملته ، ولكن رجال الحزب الوطني بدأوا عملهم بتطبيق مبدأ التفرقة ، ذلك ان الولاء الحقيقي في نظرهم هو الولاء « لمبدأ التفرقة العنصرية » •

ولا تكتفى حكومة الاتحاد ومن يدور فى فلكها بهذه الفرقة الوطنية بل ان رجال الحزب الوطنى يسعون الى اثارة البغضاء بين القبائل فيمنعون رجلا من الكسهوزا من أن يقضى ليلة فى احدى الضــواحى التابعة لقبيلة الباسوته .

ما هذا العالم المفزع الذى أعدته حكومة البيض لابنائنا ؟

٥ ــ دعوة من مسقط راسى

عندما أنهيت عملى فى كلية آدمز وعدت الى جروتفيل وجه الى شيوخ المدينة دعوات متتالية لقبول منصب رئيس المدينة . ولما كنت أشعر فى قرارة نفسى أنى لم أكتسب الخبرة الكافية التى تؤهلنى للزعامة فقد اعتذرت من عدم الاستجابة لهذه الدعوة ، ومن ناحية أخرى أدركت أن تكاليف المنصب كثيرة وأنه يشغل الانسان عن السعى فى طلب الرزق . أضف الى ذلك أنى أحببت مهنة التعليم ولم أشأ أن أتحمــــل أعباء ادارية تحول دون ممارستى لهذه المهنة .

ولكن لما اشتد الحاح قومى على ، شعرت ان هذا هو نداء الواجب وأننى يجب أن أتخلى عن رغباتى الشخصية فى سبيل المصلحة العامة وأخيرا قبلت أن أرشح نفسى لمنصب رئيس مدينة جروتفيل : وفى اوائل عام ١٩٣٦ تم انتخابى بطريق ديموقراطى سليم . ومنصب رئيس مدينة تكتنفه صعاب كثيرة فهو وان كان فى نظر البيض لايزيد عن وظيفة «رئيس عمال » الا أنه فى نظر الافريقيين ذو دلالة هامة ومقتضيات تتطلب كفاية خاصة ، ذلك أن رئيس المدينة بحكم منصبه يجلس للفصل فى القضــــايا المدنية وأحيانا فى القضايا الجنائية ، ولما كنت على دراية كبيرة بالقــــانون والاعراف الوطنية فلم أجد صعوبة فى هذه الناحية . وقد جرى العرف بأن يقدم المتقاضون لرئيس المحكمة رسما قدره خمسة جنيهات او رأسين من الماشية ، تذهب الى جيبه الخاص ، ولكنى رفضت قبول هــــذا الاجراء ومنذ ذلك اليوم تقرر اضافة هذه الرسوم الى خزينة القبيلة .

كانت لى مهمة خطيرة أخرى وهى أننى كنت أعمل كضابط اتصال بين القبيلة وبين مندوب الحكومة الاقليمى . ومهمة ثالثة وهى الاشراف على الامن فى المنطقة . وقد وجهت اهتماما كبيرا لمنع صنع البيرة خفية ،

وكان غرضى من ذلك أن أحول دون تدخل البوليس النظامى فى شئـون الاهالى حتى يأمنوا شر تعسفه •

عندما كنت فى كلية آدامز لم أكن أهتم كثيرا بما يجرى خارج أسوارها ، أما اليوم وأنا رئيس مدينة جورتفيل فقد أخذت ادرس أحوال المجتمع الذى أعيش فيه • ومن هنا تكشفت لى أمور ما كنت أتصورها من قبل • لقد شاهدت ما يقاسيه قومى من فقر مدقع ومن تعرض للمذلة كل يوم ومن استهانة بكرامتهم وكأنهم ليسوا فى عداد الآدميين وكانت مشكلة المشاكل فى جروتفيل وفى جنوب أفريقيا بأكمله هى ملكية الارض •

مشكلة ملكية الارض

ان الافريقيين وهم يبلغون أكثر من ٧٠٪ من السكان لا يملكون من الأرض الا ١٣٪ فقط، وهذه النسبة الضئيلة من أحط أنواع التربة، ويبلغ متوسط نصيب الأسرة الكاملة فى جروتفيل أربعة أو خمسة أفدنة ، على حين أن الفرد الواحـد من البيض فى نفس المنطقـة يملك ٣٧٥ فدانا ، ومن هنا يتبين لك بطلان دعوى البيض بأنهم جلبوا الى الريف الافريقى الثروة والرخاء ، ذلك أنه اذا كان هناك ثروة ورخاء فهى للبيض وحدهم دون غيرهم من أبناء البلاد .

ان الاهالى فى جروتفيل يعيشون على مستوى الكفاف واقتصادهم يقوم على زراعة قصب السكر ، ولما كان متوسط ايراد الاسرة من القصب يتراوح بين ١١٠ و ١٧٠ جنيها وأن مستوى الكفاف يقف عند ١٥٠ جنيها فمن هنا نجد أن غالبية الاسر تعيش دون مستوى الكفاف ، ومن هنـــا يضطر أهالى الريف الى الهجرة للمدن الكبرى سعيا وراء الرزق •

ومن بين أوجه النقد التى توجه الينا أن زراعتنا للارض لا تتم بطريقة اقتصادية وأن الاوروبيين ينتجون من الأرض غلة تفوق كثيرا ما ينتجه الافريقيون ، ولكن هذا قياس مع الفارق ، فالاوروبى يجد لديه الآلات الزراعية الحديثة والمخصبات الزراعية وهما عنصران من عناصر الانتـاج

يفتقر اليها الافريقى كل الافتقار • والأوربى اذا كان فى حاجة الى المال أمكنه الحصول على قرض قصير الاجل من بنك الاراضى وهذا غير ميسر للافريقى •

وأعود مرة أخرى الى مشكلة توزيع الارض الزراعية بين الافريقيين والاوربيين فأقول انها أصل الداء الذى لادواء له الا اعادة توزيع الملكية، ولكن هذا بالنسبة لنا أمل ضائع ، وخاصة بعد ان اصدر حزب الاتحاد قرارا بمنع الافريقيين من شراء الارض الزراعية •

وبدلا من أن تحاول السلطات زيادة الرقعة الزراعية التى تعيش عليها العائلات الافريقية،عمدت الى محاولات أخرى منها انشاء المزارع النموذجية ولكن هذه لم تكن حلا موفقا لأن المزرعة النموذجية تتطلب نفقات أكثر وهو مالا يتيسر للفلاح الافريقى •

ويشكو البيض من أننا نكثر من الماشية وهذه من ازدحامها على مساحة معينة من الأرض تسبب تآكل التربة ، ويعمل البيض دائما على الحد من الانتاج الحيوانى فى المناطق المخصصة للافريقيين ، ولكن كيف نستغنى عن ماشيتنا وهى كل ما بقى لنا من ثروة بعد أن انتزعت منا الارض الزراعية •

ومن المفارقات الغريبة أن حكومة البيض فى جنوب افريقيا تجرى مقارنة مضللة بين ما يملكه الافريقى من ماشية بالنسبة لمساحة أرضه وما يملكه الاوربى من ماشية بالنسبة لمساحة أرضه أيضا •

ونخرج من ذلك بأن نسبة ملكية الافريقى للماشية عالية جدا عند مقارنتها بما يملكه الاوربى وفات هذه الحكومة أن مقرر الفرد الواحد الاوربى من الارض ٣٧٥ فدانا على حين أن مقرر العائلة الافريقية بأكملها لايتجاوز خمسة أفدنة •

لقد صورت لك تلك الحالة الاقتصادية التعسة التى يعيش فيها الافريقى وقد ظهرت آثارها الاجتماعية السيئة فى تحطيم الاسر بسبب الضغط الاقتصادى الشديد وعجز هذه الاسر عن مواجهة أعباء الحياة •

والغريب أن البيض لاينسبون هذا القصور عن مواجهة أعباء الحياة الى مستوى المعيشة الوضيع الذى دفعوا الافريقيين اليه دفعا ، ولكنهم يرجعونه الي عجز طبيعى فى الافريقى عن العمل والانتاج .

لقد قدمت لك وصفا للحياة فى جروتفيل ومنطقة جروتفيل لاتمثل البؤس فى افريقيا الجنوبية تمثيلا كاملا ، ذلك لأن أرضها على درجة طيبة من الخصوبة ، واذا كان ما وصفته لك هو شأن جروتفيل ذات التربة الطيبة فما بالك بكثير من المناطق الاخرى ذات التربة الفقيرة ! .

أن سكان هذه المناطق يهجرونها للمدن فترتفع نسبة البطالة فى هذه المدن ارتفاعا كبيرا ، والحل الذى أوجدته الحكومة لتخفيف البطالة فى المدن هو اعادة هؤلاء المهاجرين الى حيث كانوا فى مناطقهم القبلية ، انه حل غريب ولكن الابيض لايحب أن يرى آثار جريمته ماثلة أمام عينيه .

مشكلة مشارب البيرة

هناك موضوع آخر كان مثار اشكال بين الحكومة وبين الافريقيين فى المدن وضواحيها . فقد جرت الحكومة على تشجيع البيض على انشاء مشارب البيرة فى هذه المدن . ولما كانت مدينة ستانجر مجاورة لجروتفيل فقد علمت أن أحد البيض سوف يفتتح فيها مشربا للبيرة ، وهنا بذلت جهودا موفقة حتى رفضت المدينة قبول طلبه . وقد عاود مندوب الحكومة عرض الاقتراح مرة أخرى ولكنه لقى معارضة اجماعية ، ورد أحد المجتمعين قائلا : اذا كان ولابد من شرب البيرة فسوف تخمرها زوجتى فى الدار دون حاجة الى شرائها من الخارج .

لقد نجحنا فى جروتفيل فى رفض الاستجابة لرغبة الحكومة بأن نوافق على افتتاح مشرب للبيرة ، ولكن مشكلة مشارب البيرة سببت اضطرابات كبرى فى كثير من أنحاء ناتال فى السنوات الاخيرة ، ذلك لاننا نعتبر أن هذه المشارب طريق قانونى يتخذه البيض لسرقة أموالنا .

ولكن كيف أصبحت مشارب البيرة سرقة لاموال الافريقيين ؟

لقد حرمت الحكومة على الاهالى المشروبات الروحية الا فى المشارب التى تنشئها البلديات وذلك كى تضمن لهذه البلديات دخلا طيبا يتحقق من الفرق الكبير بين تكاليف انتاج البيرة وسعر بيعها للمستهلك . والمرأة الافريقية ماهرة فى تخمير البيرة وهى تدرك تماما أنها تستطيع صنع بيرة جيدة بتكاليف أقل كثيرا من السعر الذى تحدده البلديات فى مشارب البيرة ، ولذلك فان منعها من صنع البيرة بنفسها طريق غير مباشر لاستنزاف المال الذى كان من المفروض أن ينفقه زوجها على أسرته .

ومن الآثار السيئة التى نتجت عن نظام مشارب البيرة ، أن الاهالى أخذوا يخمرون البيرة خفية ، وهذا بدوره أسفر عن غارات متكررة يقوم بها البوليس وفرض غرامات وزج بالأهالى فى السجون . والغريب فى الامر ان البيض هم الذين يستفيدون من هذا الجو المضطرب ، فهم يشترون البيرة من المنتجين ويعيدون بيعها بأثمان عالية للمستهلك الافريقى .

عندما ثارت ثائرة المرأة الافريقية ضد مشارب البيرة ، زعمت حكومة البيض أننا معشر الافريقيين لانقدر الخدمات الاجتماعية التى يقدمها لنا هؤلاء البيض وما فيها من خير ، ولكن ردنا على هؤلاء هو ما يلى :

نحن لانطلب منكم خيرا ولا احسانا ولكنا نطالب بنصيبنا فى حكم البلاد .

وينعى علينا البيض أننا نشجع نساءنا على صنع البيرة خفية ، وحتى المبشرون أنفسهم يوجهون الينا النقد فى هذا السبيل ، ولكن نساءنا لايقمن بهذا العمل الا تحت ضغط الحاجة ، وهن انما يفعلنه لاطعام اطفالهن . ولقد تحدثت فى هذا الامر الى عدد من الافريقيات فقلن : اننا فى هـــذا الجانب من الحاجز (ويقصدن به المنطقة المخصصة للافريقيين) لانجد ما يقيم أود أطفالنا ونسبة من يموتون من أطفالنا بسبب سوء التغذية تتجاوز ٣٣ ٪ ولكن الغذاء وفير على الجانب الآخر من الحاجز (والمقصود به أملاك البيض الواسعة المحرمة على الافريقيين) .

تلك هى نية البيض فى جنوب افريقيا ، وتلك هى مسيحيتهم !!

٦ – أهل الريف وأهل الحضر

أدركت خلال عملى كرئيس لمدينة جروتفيل أن الخمسة آلاف فلاح الذين تحت رعايتى والذين يقومون بزراعة قصب السكر فى حاجة شديدة الى التعاون مع أصحاب المعاصر • وكانت العادة قد جرت على أن تقدم المعاصر الاموال اللازمة الى منتجى القصب ، غير أن الحكومة أصدرت « قانون القصب » عام ١٩٣٦ الذى حددت به انتاج قصب السكر •

ولما ساءت حالة منتجى القصب فى منطقتنا كونت منهم رابطة أطلقنا عليها رابطة منتجى قصب السكر فى جروتفيل ، وبفضل هذه الرابطة استطعنا الاتفاق على شروط طيبة مع أصحاب المعاصر ، وبذلك تحسن موقف منتجى القصب فى منطقتنا • وهذا دفعنى الى التفكير فى منتجى القصب فى المناطق الاخرى التى لم يتح لها مثل تلك الرابطة التى أنشأناها• لذلك وجهت دعوة عامة الى كثير من الزعماء والمزارعين الافريقيين لتكوين اتحاد عام لمنتجى القصب فى جنوب افريقيا • وقد نجحت خطتنا واستطعنا تكوين رابطة منتجى القصب فى ناتال وزولولاند ، واختارنى الأعضاء رئيسا لهذه الرابطة . وأود أن أشير هنا الى خبرة جديدة صادفتها أثناء محاولتى تكوين رابطة افريقيا لمنتجى القصب ، ذلك أنه لم يستجب لدعوتى الا عدد محدود من الزعماء والزراع ، ومن هنا أدركت الصعوبة التى يواجهها من يحاول القيام بعمل مشترك فى افريقيا . ويعرف الاوربيون عنا نقطة الضعف هذه ويستغلونها أسوأ استغلال . ولقد بدا نوع التقارب بين الافريقيين فى السنوات الاخيرة بسبب مايقاسمونه من ظلم ولكننى أعتقد أن الأفريقيين فى اتحاد جنوب افريقيا لايزالون بعيدين عن أن يكونوا مجتمعا متماسكا .

أنتقل بالقارىء الآن الى وجه آخر من أوجه الخلاف بن الافريقيين وحكومة الاتحاد ، وهو موضوع الولاء . أن الزولو يدينون بالولاء

« للزعيم الاكبر » وهذا الزعيم ليس صاحب سلطة شرعية على بقية الزعماء ولكنه بحكم مركزه انتقليدى يتمتع بنفوذ كبير بين هـؤلاء ، ولما كانت الحكومة الحالية تمارس ضغطا قويا على الزعيم الاكبر ، فقد وجد بقيه الزعماء أنفسهم فى حيرة من أمرهم : هل يتبعون شيخهم الذى يخضع بدوره لحكومة البيض ، وبذلك يضيعون مصالح قومهم ، أو يعلنون عدم ولائهم له وفى هذا خروج على تقاليدهم القبلية ؟

لقد عقدنا اجتماعا عاما لزعماء الزولو تحت رياسة الزعيم الاكبر ، وكان ذلك بدعوة من الحكومة كنتيجة مباشرة للحرب فى أوربا • أما غرض الحكومة من عقد هذا الاجتماع فهو الحصـول على عدد من المتطوعين للجيش •

كان هنا استعراض أطلقت خلاله بعض المدافع القديمة ، ولـكن المشهد لم يثر فى نفس أى اهتمام او حماسة ، ولم يكن هذا شعوراانفردت به وحدى ولـكنه شعور الجميع . كان أبنـاء الزولو المجنـدون يحملون البنادق ، ولكنا على يقين من أن هذا خدعة وتضليل ، ذلك أن الزولو لن ينالوا شرف حمل البنادق أثناء الحرب ولكنهم سوف يسـتخدمون فى تقشير البطاطس وحفر الخنادق وقيادة السيارات •

عندما دعينا الى التطوع فى الحرب العالمية الاولى ، لبينا الدعوة طائعين ذلك أنا كنا على يقين من أنهم سوف يستجيبون لمطالبنا بعد المعركة ، ولكن تبين لنا بعد الحرب أن ماعقدنا عليه الآمال كان وهما وخيالا ، ولذلك فلم نبد أى اهتمام عندما دعينا فى الحرب العالمية الثانية .

انى لاأزال أذكر كارثة الباخرة مندى ومن عليها من أبنـاء قومى ولكن البيض فى جنوب أفريقيا تناسوا كل ما ضحينا به واعتبروا أن ولاءنا لقضيتهم أمر مفروغ منه •

لقد أشاعوا بيننا أن هتلر دكتاتور يريد أن يسيطر على العالم وأنه يجب أن تحشد جميع القوى للقضاء عليه ، ولكن هذه الدعوة لم تصادف هوى فى نفوسنا ؛ لاشأن لنا بهتلر ولا بغيره وانما كان المطلوب منها نحن

الافريقيين أن تتجمع تحت لواء الجنرال سمطس وبنى جلدته من البيض الظلمة فى جنوب افريقيا ، كذلك دعينا للدفاع عن الاستعمار البريطـانى الذى ذقنا منه الامرين .

وعلى فرض أننا تحمسنا للمعركة من أجل هؤلاء وهؤلاء ، فقد كنا نعتقد أن مصيرنا بعد الحرب هو التجاهل والاهمال .

أرادت حكومة البيض أن تستثيرنا للحرب بحجة أن هتلر يدعى تفوق العنصر الالمانى على بقية العناصر ، ولكن ما الفارق لدينا نحن « السود » بين دعوة هتلر ودعوى بوثا أو سمطس أو غيرهم من بيض جنوب افريقيا أصحاب نظرية « السيطرة العنصرية » ؟ هكذا كانت استجابتنا للنداء الذى وجهته الينا حكومة الاتحاد ضعيفة فاترة ، على الرغم من أن الحكومة خلعت على « الزعيم الاكبر » وكبار رجاله القابا عسكرية ضخمة .

٧ - رحلتان إلى الخارج

أثناء عملي كزعيم افريقي اشتركت فى عضوية منظمتين : احداهما مجلس ديربان المشترك للاوربيين والافريقيين ، والثانية معهد العـــلاقات العنصرية .

لم تؤد المنظمـة الاولى خدمات هامة للافريقيين ، لأنها لم تحاول بحث المشاكل الحقيقية للبلاد ولأن غالبية أعضائها من البيض ، ويبدو أن هدف هؤلاء من العضوية هو تضليل العناصر الافريقية والحد من قوتها .

أما معهد العلاقات العنصرية فقد كان ذا فائدة كبرى من ناحيـــة الدراسات الموضوعية التى قام بها ، ولكنه من الناحية العملية لم يفد شيئـا لأن جنوب افريقيا البيضاء لم تعن بأى بيانات أو احصاءات عن جارتهـا السوداء وما تعانيه من فقر وبؤس .

ولقد دعيت مرة لالقـاء محاضرة فى جمعية الشابات المسيحيات فى ديربان ، وكان من المقرر أن يشترك معى فى المحاضرات هندى من هنود جنوب أفريقيا وآخر من البوير وثالث انجليزى وقد لاحظت أن البويرى مد يده الى الهندى باشمئزاز ، أما أنا فقد تجنب أن تلامس يده يدى .

وحادث آخر وهو أن المجلس المسيحى فى جنوب افريقيا عقدمؤتمرا للمبشرين فى ناتال ، وقد ضـم منـدوبين من شتى الطوائف المسيحيـة دون تمييز عنصرى أو لونى ، وكم كانت دهشتى عندما علمت أن ممثلى الكنيسة الهولندية انسحبوا من المؤتمر بسبب وجود عنـــاصر سوداء من أمثالى .

ولقد قرر المؤتمر ندبى لتمثيله فى المؤتمر الدولى التبشيرى المقرر عقده فى مدينة مدراس بالهند ، وهذه أولى رحلاتى الى خارج حدود جنوب افريقيا .

كان رئيس وفدنا فى هذه الرحلـــة مبشراً من البوير وقد تجنب الاتصال بى فى الايام الاولى من الرحلة ، هذا بجانب أننا معشر الافريقيين سافرنا بالدرجة الثانية على حين أن الاوربيين سافروا بالدرجة الاولى .

وفى ذات يوم جاءنا هذا الرئيس فى الدرجة الثانية ثم قال : الواقع انى شخصيـا لا أهتم بالفـارق اللونى ، وأنا على استعـداد للاتصال بأى مسيحى من أى جنس ومن أى لون كان ، أما فى جنوب افريقيا فهناك موقف آخر ، فلا أستطيع هناك أن أدعو أحدكم الى مائدتى خشية اعتراض الجيران .

وفى عام ١٩٤٨ أتيحت لى فرصة أخرى لزيارة الولايات المتحـدة لالقاء محاضرات عن النشاط التبشيرى فى الخارج .

وما أن وصلت نيويورك حتى بدأت فورا فى تنفيذ البرنامج الذى أعد لى .

ولقد لاحظت اهتماما كبيرا من الامريكيين بالشئون الافريقية ، ولم تكن أسئلتهم قاصرة على جنوب افريقيا وحده ، بل كان موجها الى كل جزء من أجزاء القارة .

ولقد زرت شيكاغو وواشنطن ومينا بوليس وأينما ذهبت كان هناك اهتمام كبير بأفريقيا . وقد علمت أن الانتخابات الامريكية على الابواب وأن من أهم عناصر الدعاية الانتخابية موضوع التنمية الاقتصادية فى البلاد المتخلفة . وكم تمنيت أن تكون أمريكا مخلصة فى رفع مستوى الشعوب المتخلفة ، لا أن تكون المسألة مجرد دعاية لجذب الافريقيين نحو المعسكر الغربى أو وسيلة لاستغلال موارد افريقيا الاقتصادية .

والواقع أن مخاوفى لها ما يبررها فنحن الآن موضع تجاذب قوى بين الشرق والغرب ، ولكننا لانريد أن ننحرف نحو هـــذا أو ذاك ، بل هدفنا الاحتفاظ بشخصيتنا الافريقية ، وعلى الزعماء الافريقيين أن يكونوا على حذر من الاغراء المادى فان الحياة لاتقوم بالمادة وحدها .

التفرقة العنصرية فى أمريكا

انتهزت فرصة وجودى فى أمريكا فقمت برحلة الى الى الجنوب حيث تكون العناصر السوداء ٠ وقد تجمع حولى كثير من سود أمريكا وأخذوا يمطروننى بسيل من الاسئلة منها : هل نستطيع السفر الى افريقيا وتقديم يد المساعدة لكم ؟

وقد أجبت على هذا السؤال بما يلى :

أننا نرحب بمقدمكم ترحيبا حارا ، ولكن حكومةجنوب افريقيا لن تسمح لكم بذلك ، وأنتم تقدمون لنا أكبر خدمة هنا بتصميمكم على محاربة التفرقة العنصرية فى أمريكا نفسها ، وكلما اعتنقت أمريكا المبادىء الديموقراطية الصحيحة كان لذلك أثره فى البلاد الصديقة لها. كذلك أنبهكم الى أن بعثاتكم التبشيرية فى جنوب أفريقيا أخذت تنحاز الى جانب « الرجل الابيض » ٠

لم ألاحظ مظاهر التفرقة العنصرية فى شمال الولايات المتحدة ولما سافرت الى الجنوب بدت هذه المظاهر الى حد ما ٠ وأذكر أنى أثناء وجودى فى الجنوب طلبت من مضيفتى أن تصحبنى الى السينما ولكنها اعتذرت قائلة ان هذا قد يسبب لها المتاعب ٠ أما فى واشنطون فقد كانت مظاهر التفرقة العنصرية قوية صارخة ٠

ومهما يكن من أمر فقد استطعت فى أمريكا أن أختلط بالبيض وأتحدث اليهم وأصادقهم ، ولم تنطبق السماء على الارض لهذا الاختلاط بين الابيض والاسود ٠

عدت من أمريكا عن طريق لشبونة ، وهى مدينة جميلة حقا ، ولكن لاعجب فان جمالها هذا قد اعتصر من دماء الافريقيين الذين لم تتح لهم فرصة ليتذوقوا بعض هذا الجمال ٠

قد شاهدت أثناء رحلتى وتعلمت الكثير ولكن ما رأيته وما شاهدته لم يغير عقيدتى الاولى فى ألا أناصب ظالمى قومى العداء ، بل سوف أحافظ على مبدئى وأظل مسالما لهم حتى يعترفوا بحق الافريقى فى حكم بلاده ٠

٨ - من الذى يملك جنوب أفريقيا

فى عام ١٩٤٨ تولى الحزب الوطنى الحكم فى جنوب افريقيا تحت رياسة الدكتور مالان وبلغتنى وأنا فى طريق العودة أنباء اضطرابات ديربان المفجعة وهنا أدركت أن الامور فى جنوب أفريقيا بعيدة عن أن تكون هادئة .

لست من أولئك الذين ينسبون القلاقل والاضطرابات الى المسائل الاقتصادية أو الضغط الاقتصادى، ذلك لانى أرى أن النقطة الأساسية التى يدور حولها الخلاف فى جنوب افريقيا هى موضوع « الملكية » .

ولما كانت العناصر التى يتكون منها سكان جنوب افريقيا على خلاف دائم بشأن هذا الموضوع ، فهو لذلك يرتبط ارتباطا وثيقا بالعوامل العنصرية ، وما يتبعها من فوارق لا يمكن تجنبها .

انك لو حاولت أن تفصل بين المشكلة العنصرية وموضوع الملكية فى جنوب افريقيا ، فلن تستطيع الى ذلك سبيلا لان كل عنصر يدعى لنفسه الحق الاول فى ملكية البلاد .

ولنا هنا أن نتساءل : من الذى يملك جنوب أفريقيا ؟

لو أنك وجهت هذا السؤال الى الافريقيين لاجابوك على الفور بأن الذى يملك جنوب أفريقيا هم أربعة عشر مليونا من السكان يمثلون عناصر مختلفة ، وأنا شخصيا أوافق على هذا الرأى دون تحفظ . فقد يختلف السكان فى لونهم أو فى ثقافتهم أو فى عاداتهم وتقاليدهم ، ولكنهم يشتركون فى آدميتهم وهم بذلك متساوون فى الحقوق والأرض بما عليها ملك لهم جميعا .

فاذا انتقلت الى المعسكر الابيض وجدت مايشبه الاجماع على أن

جنوب افريقيا ملك لثلاثة ملايين من البيض . وهذا هو رأى الجنرال سمطس والدكتور مالان وهندريك فيرفورد وزمرتهم . لا بل أن هؤلاء بصفتهم «العنصر الأبيض» لا يقفون بالملكية عند حد الأرض أو الثروة أو الحكومة ، بل يدعون أن ملكيتهم تمتد الى الاحد عشر مليونا الاخرى من السكان الذين يعيشون على « أرض الرجل الابيض » ان هؤلاء البيض لايسلمون بالفكرة القائلة أنهم اتخذونا عبيدا ، ونحن من جانبنا نوافقهم على هذا القول اذا كان المقصود بالرق مفهومه القديم ، ولكن المفاهيم تتغير بتطور الزمن ، فمثلا حلت الملكية الجماعية محل الملكية الفردية ومن هنا يمكن القول بأن الرق بدوره قد « تأمم » .

ان السادة البيض حكام جنوب افريقيا يرسمون لنا معالم طريقنا فهم يحددون لنا أين نعمل وأين لانعمل ، وأين نسكن وأين لانسكن ، كذلك سلب هؤلاء منا كل حقوق ملكية الارض ، ووضعوا لنا قوانين تحرم علينا الاضراب أو الاحتجاج ضد أى قوانين أو لوائح يصدرونها والبرلمان لهم والاستغلال فى أيديهم ، واذا أرادوا اتخاذ اجراء خاص بنا اتخذوه بعد مناقشات فيما بينهم .

اذا لم نكن عبيدا بعد كل هذا فأين العبيد ؟

اذا تصفحت تاريخ جنوب افريقيا منذ اعلان الاتحاد عام ١٩١٠ وجدته ناطقا بملكية البيض للسود والهنود والملونين .

فى كل انتخابات تجرى فى اتحاد جنوب افريقيا تبرز مشكلة «الافريقيين» ويصادفك السؤال التالى على ألسنة البيض الذين شغلتهم الحملة الانتخابية : « ماذا تفعل بذلك المتاع المنقول » ؟ (يقصد بذلك الافريقيين) . وهكذا نقف أمام هذا المشهد جامدين وكأننا كرة يتقاذفها البيض .

ان موضوع الملكية لم يتحدد فى جنوب افريقيا منذ اعلان الاتحاد حتى اليوم ، فجمهوريتا البوير لم تمنحا الافريقيين أى حقوق ، أما فى

« مستعمرة ناتال » الانجليزية بما فيها بلاد الزولو فقد كان بها نظام معقد يتيح لفئة قليلة من الافريقيين حق الانتخاب ، وفى الكاب حصل الافريقيون على بعض حقوقهم الانتخابية •

تلك هى الاوضاع التى كانت سائدة قبل اعلان الاتحاد •

فلما جاء الاتحاد سلم جنوب أفريقيا بقضه وقضيضه الى الرجل الابيض ، وتضامنت ناتال الانجليزية فى ذلك مع جمهوريتى البوير ، وهكذا أصبح العنصر الابيض سيد البلاد ومالكها ؛ أما العناصر الاخرى فقد كانت « موجودات » الضيعة التى انتقلت بانتقال الملكية •

ولكنا نحن الافريقيين نعتبر قانون الاتحاد نوعا من القرصنة وأن أرواح وقوى عشرة ملايين من الافريقيين كانت جانبا من القيمة التى سلبها القراصنة •

ومنذ اعلان الاتحاد حتى الوقت الحاضر أخذت الحكومات المتعاقبة تثبت مركز الرجل الأبيض على حساب ما أطلقت عليه صراحة اسم « الشعوب التابعة » ، وكل القوانين التى صدرت منذ ذلك الحين خاصة بالصناعة أو ملكية الارض أو الزواج أو حرية الانتقال أو بناء الدور أو التجارة أو الجوازات أو الاجور أو الاحزاب أو الخدمات الكنسية أو النقل ، كانت جميعها تهدف الى تثبيت ملكية الرجل الابيض •

ومنذ عام ١٩١٣ صدر قانون الاراضى الخاص بالافريقيين وبموجب هذا القانون حددت لنا مناطق خاصة للاقامة الدائمة بها • وفى عام ١٩٦٠ صدر ملحق لقانون التعليم الجامعى وبموجبه حرمنا من الالتحاق بالجامعات القائمة فى الاتحاد •

المعارضة الافريقية لسيطرة الرجل الأبيض

منذ أن وطئت أقدام الرجل الابيض أرضنا ونحن نعترض على وجوده بيننا ، ولكن المعارضة الحقيقية لم تظهر الا بعد اعلان الاتحاد فهنا بدأت حركة المقاومة المنظمة • لقد استطاع البريطانيون والبوير أن

يتضامنوا معا فى السيطرة على أرضنا ، وكانوا فى هذا أسبق من الافريقيين الذين لم يدركوا حاجتهم الى الوقوف فى وجه الرجل الابيض الا بعد أن انتزع أقواتهم من أيديهم وعاملهم معاملة السائمة .

كان أول رد منظم لنا على هؤلاء المستعمرين انشاء «المؤتمر الوطنى لشعب جنوب افريقيا» ، وقد أصبح اسمه فيمـــا بعد «المؤتمر الوطنى الافريقى» . لقد جاء مولد هذه المنظمة الوطنية الافريقية كنتيجة مباشرة لما فعله الرجل الابيض بابعادنا عن أرضنا ، وما أعقب ذلك من تضـــامن البيض من انجليز وبوير فى تثبيت دعائم هذا الابعاد .

وكان أول رجل شعر بالحاجة الى الوحدة الافريقية وطالب بانشاء هيئة منظمة للدعاية لتحقيق هذه الوحدة هو الدكتور سيم الذى عاد أخيرا من أكسفورد . استطاع سيم أن يقنع بقية الزعماء الافريقيين بأهميـــة الوحدة ، وقد توج نشاطه وحماسته باجتماع عقده الزعماء الافريقيون فى بلومفنتين فى مستهل عام ١٩١٢ .

وفى أثناء رياسة الدكتور جون دوب للمؤتمر أعاد تنظيمه على نسق البرلمان الانجليزى فكان هناك مجلسان : مجلس الزعمـــاء ، ومجلس الشعب . وقد واجهت تشكيل مجلس الزعماء صعاب جمة منذ نشأته ، لأن سلطات الاســتعمار كانت قد رشحت لمراكز الزعامة عــددا من الافريقيين واحتضنتهم فأصبحوا صنائع لها . أضف الى ذلك أن هـــذه السلطات أخذت تضغط على كل زعيم اشترك فى عضوية المجلس وتعمل على ابعاده عن تلك المنظمة الوطنية . وعلى الرغم من كل هذه المحاولات فقد ظلت العلاقات طيبة بين الزعماء وبين أعضاء مجلس الشعب المنتخبين ، وظل الزعماء على ولائهم لحركة المقاومة ، وأعلنوا عطفهم عليها حتى مع عدم اســـتطاعتهم اتخاذ مراكز اتخاذ قيادية فيها بســبب ارتباطهم بالحكومة .

وليست مهمة المؤتمر اصدار تشريع ولكن مهمته الحقيقية هى العمل على وضع الامور فى نصابها باشراك الافريقيين فى حكم بلادهم ، وتوجيه وارشاد قوى التحرير وتنظيم المقاومة السلمية لظلم الرجل الابيض والمطالبة

المستمرة برفع الحيف عن الافريقيين ، ولقد أصبح المؤتمر بوضعه هـذا اشبه بحزب سياسى يعمل على محاربة الانتخابات الحالية التى تجريهـا حكومة البيض •

أقول ان المؤتمر « أشبه » بحزب سياسى ، ذلك لانه ليس حزباسياسيا يضم فئة معينة من سكان جنوب افريقيا ولكن أبوابه مفتوحة لكل افريقى يسعى الى تحقيق مبدأ اشتراك سكان جنوب افريقيا جميعا فى حكم بلادهم •

ومن بين الاهداف الاساسية للمؤتمر منذ نشأته العمـــل على خلق وحدة افريقية ، وتنمية وعى الافريقى بحيث ينقل ولاءه من القبيلـــة الى الوحدة الافريقية أى يتحول من ولاء قبلى الى ولاء شعبى • ولقد أدرك البغاة هدفنا فقاوموه بكل عنف محاولين المحافظة على الولاء القبلى حتى يكون زعماء القبائل ورجالهم العوبة فى أيديهم يحركونها كما يشاءون • ولا أقول اننا نسينا المعركة ضد الطغاة ، ولكنا قطعنا شوطا كبيرا نحـــو الوحدة ، وكلما ازداد البيض عسفا ؛ ازداد الافريقيون تفاهما وتقاربا ،

كان المؤتمر فى مراحله الاولى يقصر جهـوده على أن يلتمس من البيض رد المظالم وخاصة فيما يتعلق بقانون ملكية الاراضى الصادر فى عام ١٩١٥ وكذلك نظام تصاريح الانتقال

وماكان المؤتمر فى ذلك الوقت قد تقدم بمطالبه الأساسية وهى الاشتراك فى الملكية وفى ادارة الحكومة ، وعلى الرغم من تمسك المؤتمر بالوسائل السلمية ومحاولة الاقناع بالحجة والدليل فان السيد الابيض أصم أذنيه عن سماع أى نداء ، ويبدو لى أن الالتجاء الى العقل والمنطق والقيم الانسانية والمبادىء الديموقراطية كلها أمور لايفهمها الرجـل الابيض فى جنوب افريقيا .

ولما لم يفهمنا الرجل الابيض فى جنوب افريقيا ولينا وجهنا شطر « التاج البريطانى » متجاهلين قانون ويستمنستر الدستورى الذى منـح الدومنيون استقلالا كاملا داخل نطاق الكومنولث. أرسلنا الوفود الى لندن، فأحسن المسئولون استقبالها ولكنها عادت خالية الوفاض .

وبعد الحرب العالمية الاولى ارسلنا وفدا الى مؤتمر الصلح فى فرساى وهناك اجتمع وفدنا مع الجنرال هرتزوج الذى كان يسعى الى اقامة حكومة جمهورية فى جنوب افريقيا ، ولكن تبين للوفد أن هناك هوة سحيقة بين مطالب البوير ومطالب الافريقيين •

ولقد نظمنا حملة قوية ضد نظام تصاريح الانتقال فى اقليم الاورانج وفى جوهانسبرج وفى كيب تاون وبورت اليزابث ، وكثرت الاضطرابات والاعتقالات بل ان البوليس اعتدى على الافريقيين المتظاهرين فى بورت اليزابث وقتل منهم واحدا وعشرين وفى العام التالى قتل البوليس ١٦٣ من الافريقيين فى بولهوك وفى عام ١٩٢٤ ذبح مائة من الهوتنتوت لانهم رفضوا دفع ضريبة على الكلاب •

هكذا بدأت حكومة البيض فى جنوب افريقيا تجنى ثمرة مرة لقانون الاتحاد الغاشم ، ممثلة فى نضال شعبى افريقى •

ولم يكن المؤتمر وحده فى ميدان المقاومة فهناك منظمات العمال والحزب الشيوعى ، وهكذا أصبحت حركة المقاومة عامة شاملة فى جميع أنحاء جنوب افريقيا • حقيقة أن الحركة ينقصها الوحدة والتماسك ولكن بيننا اجماع على مقاومة الرجل الأبيض الذى ينكر علينا حقنا فى حكم بلادنا ، كما يحرمنا من الانتقال داخل أراضينا كما نشاء •

لقد ادعى البيض لأنفسهم حقوقا على الارض وعلى سكانها الافريقيين ووقف الافريقيون من هذه الدعوى موقف المعارضة ، ومن هنا بدأ الصدام وما يرتبط به من سلسلة لا نهاية لها من القوانين التى لا تقف عند تثبيت سلطة الرجل الابيض فقط ، ولكنها تتعدى ذلك الى سحق كل معارضة من الافريقيين ، وشل كل حركة يقومون بها والقضاء على مابقى من حقوق وتوقيع العقوبة على كل افريقى لا يعترف للبيض بالتفوق العنصرى والسيطرة •

كان سمسطس دائما يقول : « ان هدفنا الآسمى هو أن نجعل جنوب أفريقيا بلد الرجل الابيض » وفى عام ١٩٢٥ انتهى عهد سمطس ، وأعقبته

حكومة ائتلافية من جماعة هرتزوج والعمال (البيض طبعا) . وفى عام ١٩٢٩ استطاع هرتزوج أن يحكم وحده دون ائتلاف مع العمال ، ولكن ما أن جاء عام ١٩٣٣ حتى وجد هرتزوج نفسه فى مشاكل مع المتطرفين من أنصاره وعلى رأسهم مالان .

ولم توضع القوانين المقيدة لحرية الافريقيين فى عهـد هرتزوج وحده ، بل أن سيل هذه القوانين أخذ يتدفق منذ عشرينات القرن الحالى ، والواقع أن القوانين الوحشية التى طبقت فى عهـد مالان وستريجـدوم وفيرفورد كانت مدونة فى « سجل القوانين » قبل أن يتولى أى من هؤلاء رياسة الوزارة . ذلك أن هذه القوانين كانت قد أعدت من قبل فى عهد هرتزوج وسمطس .

ففى عهد هرتزوج اتسع نطاق الحيف واتسعت فى مقـابل ذلك حركة المقاومة الافريقية ، وظهرت اضطرابات فى ناتال وفى ديربان وفى وورسستر وكانت النتيجة فى كل مرة الاطاحة بعدد من رءوس السود .

ولقـد منح البرلمان الحكومة مزيدا من السلطـة اللازمة لاخضاع الافريقيين ، وكانت القاعدة السائدة حينذاك هى : « اذا تأوه الافريقى من الألم فأجهز عليه » .

قوانين هرتزوج

كان هدف هرتزوج أن يجرد الافريقيين ممـا بقى لهم من حقوق سياسية ضئيلة وقد ساعده على ذلك الائتلاف الذى تم بينه وبين سمسطس مما أتاح له أغلبية برلمانية تكفى لتحقيق أغراضه . وأصـدر هرتزوج تعديلين لقانون ملـكية الارض الزراعية الصـادر فى ١٩١٣ وسـميت التعديلات الجديدة بقوانين هرتزوج . وبموجب هذه القوانين حرم الافريقى من حق الانتخاب . كانت بعض قوانين وخصوصا فى الكاب تتيح لعدد قليل من الافريقيين ممارسة حقوقهم الانتخابية ، ولـكن بصـدور القوانين الجديدة حرم جميع الافريقيين من حق الانتخاب . وقد وضع

نظام انتخابى معقد من شأنه أن يصبح للافريقيين حق انتخاب أربعة من أعضاء الشيوخ وثلاثة من أعضـاء مجلس النواب ، على أن يكونوا من هؤلاء من « البيض » وهكذا أصبح سادتنا البيض يمثلوننا فى « البرلمان الابيض » .

كذلك أنشأت حكومة الاتحاد لنا مجلسا سمته مجلس ممثلى الافريقيين ، ولكن ممن يتكون هذا المجلس ؟ انه يتكون من وزير شئون الافريقيين يساعده أربعة من مراقبى شئون الافريقيين وهؤلاء كلهم من البيض ، ويضاف الى هذه المجموعة عدد من الافريقيين وبصفة استشارية.

٩ ــ قوانين هرتزوج

عندما أعد هرتزوج قوانينه دعا الافريقيين الى مؤتمر عقد فى بلومفنتين فى شهر ديسمبر ١٩٣٥ . وكان الغرض من عقد هـذا المؤتمر مناقشة مشروعات القوانين الجديدة ، وقد انقسم المؤتمـرون الى قسمين فالشباب الافريقى رفض القوانين رفضا قاطعا ، أما المسـنون فقد اقترحوا ادخال تعديلات عليها واقرارها بعد ذلك .

وقد رفض المؤتمر الوطنى الافريقى الاشتراك فى مؤتمر بلومفنتين لأنه كان معارضا لهذه القوانين من حيث المبدأ . ولما تولى الدكتور كسوما رياسة المؤتمر الوطنى الافريقى بدأ ينظم حركة المقاومة استعدادا لمعركة مع الحكومة . كانت رياسة كسوما للمؤتمر الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٤٩ وفى خلال هذه الفترة انتهت الحرب وظهرت فى عالم الوجود تلك المنظمة الدولية الكبرى وهى الأمم المتحدة ، وأعلنت الأمم المتحدة ميثاقهـا الذى يكفل حقوق الانسان وحرياته الكاملة .

وقد شجعت هذه التطورات الدولية أعضاء المؤتمر الوطنى الافريقى وعلى رأسهم الدكتور كسوما فأعدوا وثيقة أطلقوا عليها اسم «المطالب الافريقية » ولقـد تضمنت هذه الوثيقة دستورا جديدا يكفل للافريقيين حرياتهم وحقوقهم فى اتحاد جنوب أفريقيا .

وتقدمنا بمطالبنا الى الحكومات المتعاقبة ولكن كان نصيبنا فى كل مرة رفض المطالب .

١٠ – برنامج عملى

أجريت الانتخابات العامة فى اتحاد جنوب افريقيا فى عام ١٩٤٨ • وكان الجنرال سمسطس زعيم الاتحاد على ثقة من الفوز ، على حين أن مالان زعيم الحزب الوطنى كان هو الآخر يتطلع الى النصر فى الانتخابات •

ولقد كان محور الحملة الانتخابية كما هى العادة ، يدور حول الافريقيين •

لقد حاول الاتحاديون أن يظهروا نوعا من النزوع الى الحرية فوعدوا بمنح الافريقيين بعض الحقوق ، ولكن أوان ذلك كان قد ولى وأصبحت المعركة الكبرى هى معركة التفرقة العنصرية •

تقدم مالان ليعلن للبيض أن هناك ما يسمى « الخطر الأسود » وأنه يجب العمل بجد لحماية البيض من هذا الخطر • وقد كان لدعوة مالان فعل السحر فى نفوس الناخبين ، وعندما ظهرت نتيجة الانتخاب تبين أن الحزب الوطنى لم يفز فى الانتخابات فقط ، بل أن سمطس نفسه قد سقط فى دائرته الانتخابية •

وقفنا نحن الافريقيين كمتفرجين على سير المعركة الانتخابية ، وما شأننا والانتخابات تستغلنا أثناء المعركة ، حتى اذا ما انتهت هذه المعركة عاد البيض الى ولائهم المتبادل وألقونا ظهريا وكأننا شىء لا وجود له • لقد شهدنا عهد بوثا وهرتزوج وسمطس، وأصبح لا يهمنا اليوم فوز مالان أو سقوط سمسطس •

شىء واحد فقط لابد وأن نعد له العدة ، ذلك هو أن الحزب الوطنى الذى سوف يتولى الحكم بعد فوز مالان لابد وأن يشدد قبضته عن أعناقنا وعلينا اذا أن نستعد لمعركة مريرة معه •

والمهم أولا وأخيرا ألا نخضع لسيطرة الرجل الأبيض مرة أخرى.

لقد مهدا لنا مالان وستريجدوم وفيرفورد الطريق ، فقد أدرك الافريقيون ما يكنه لهم هؤلاء من نوايا سيئة ، وأصبح الرأى اجماعياً بيننا على المقاومة .

كان الدكتور كسوما زعيم المؤتمر الوطنى افريقيا مخلصا لقضية مواطنيه ولكن كانت تنقصه دفعة الشباب وحماسته ، ولما كانت رابطة الشباب تد اخذت تسيطر على المؤتمر فلم يعد وجود كسوما على رأس هذه المنظمة ليتجاوب مع أمانى هؤلاء الشباب .

وفى عام ١٩٤٩ تنحى كسوما عن رياسة المؤتمر الوطنى الافريقى وتولى مكانه مورؤكا رياسة المؤتمر حتى تم وضع البرنامج العملى .

ان هذه الجلسة تعتبر بداية مرحلة هامة فى تاريخ المؤتمر ، فهى تمثل تغييرا أساسيا فى سياسة المؤتمر وفى وسائله لتحقيق هذه السياسة. كنا قبل ذلك نقنع بالفتات ونرضى ببعض تعديلات تجربها الحكومة هنا وهناك ، أما اليوم فقد ألقينا هذه التفاهات جانبا وعقدنا الخناصر على أن نحصل على حق الانتخاب لأننا بدونه سنظل فى عجز متواصل .

أما من ناحية الوسائل فقد أجرينا تغييرا جوهريا . كانت وسائلنا حتى اليوم الاتصال بالمسئولين وارسال الوفود وتقديم العرائض والمذكرات ولكن ثبت لنا بعد طول الخبرة أن هذه محاولات لا تجدى فتيلا وأننا يجب أن نرتب المظاهرات على نطاق واسع فى طول البلاد وعرضها ، وكذلك الاحزاب والعصيان المدنى . ان هذا العصيان ليس موجها ضد القانون بوجه عام ولكن ضد تلك القوانين التى تميز بين فئة وفئة من أبناء البلد الواحد . وهذه القوانين الجائرة تبدأ من قانون الاتحاد عام ١٩١٠ حتى وقتنا الحاضر .

ولما تمت موافقة المؤتمر على البرنامج الجديد أحيل الى اللجنة التنفيذية لاعداد وسائل تطبيقه .

وقد بدأت المظاهرات الكبرى ابتداء من ٢٦ يونيو ١٩٥٠ ، وكانت

هذه المظاهرات احتجاجا على اصدار قانون المناطق القبلية وقانون القضاء على الشيوعية • وقد اشترك فى هذا العصيان المدنى الأفريقيون والهنود والملونون فى اتحاد جنوب أفريقيا • وفى مايو **١٩٥١** قام الملونون بحركة اضراب قوية أيدهم فيها الافريقيون والهنود • وسبب هذا الاضراب ما اعتزمته حكومة الكاب من استبعاد الملونين من القائمة الانتخابية المشتركة •

وفى يوليو **١٩٥١** عقدت اللجان التنفيذية الممثلة للطوائف الثلاث (الافريقيين والملونين والهنود) اجتماعا عاما وقرر المجتمعون انشاء مجلس مشترك للتخطيط لتنظيم التعاون بين العناصر غير البيضاء ، وهذه خطوة كبرى نحو اقرار نظام حكم فى جنوب افريقيا لا يخضع لحاجز اللون •

١١ — التحدى والطرد

قرر مجلس التخطيط المشترك شن «حملة تحد» يوم ٢٦ يونيو» وقد تصادف أن كان هذا يوم احتفال البيض بمرور ثلثمائة عام على قدوم جان فون ريبك الى جنوب أفريقيا . هكذا كان هؤلاء البيض يحتفلون بمرور ثلثمائة عام من تاريخهم الاستعمارى ، بينما كنا نحن الافريقيين نشن حملة احتجاج على مرور ثلثمائة عام من الظلم وسيطرة البيض على بلادنا .

وفى ميدان الحرية فى مدينة صوفيا تاون وقف الدكتور موروكا خطيبا فى جمع حاشد يضم آلافا من جميع العناصر التى تعيش فى جنوب أفريقيا باستثناء البيض ، وكان مما قاله موروكا : « ان البيض يحتفلون بمرور ثلثمائة عام على استعمارهم لهذه البلاد . ان قلب الرجل الأبيض اليوم يفيض بشرا وسرورا ، وهؤلاء الأوروبيون لديهم كل المبررات للاحتفال بعيدهم هذا . فهم اليوم ، اذا ما قورنوا بغيرهم من أبناء الغرب، يعتبرون أكثر الجميع ثراء . ولكننا نحن الافريقيين نعود بالذاكرة الى الوراء ثلثمائة عام فنجدنا أمام سجل طويل حافل بالمآسى والآلام . ان هؤلاء الأوربيين كلما قلبوا صفحة من صفحات تاريخهم الاستعمارى فى جنوب أفريقيا وجدوها ملطخة بدماء الشهداء من أبناء البلاد ، ومليئة بالظلم والقسوة والوحشية .

لم تقتصر حملة التحدى على صوفيا تاون وحدها بل كانت حملات مشابهة فى كيبتون وبورت اليزابث وايست لندن وبريتوريا وديربان وفى غيرها من المراكز الصغرى .

وكان رد الحكومة على حركتنا هذه اصدار تصريحات بأننا لسنا « أصحاب حق » وهددتنا باتخاذ أقسى الاجراءات لقمع الحركة وانهاء الاضطرابات .

وزاد الموقف حدة بيننا وبين السلطات أنه لم تكن هناك وسيلة للتفاهم ، فهى تتكلم بلهجة الآمر الذى يجب أن يطاع ، ونحن من جهتنا لم نعارض بأن يربت الابيض على أكتافنا قائلا : ماهذا أيها الولد الافريقى الطيب ؟

ولما تعقدت الأمور استدعتنى ادارة شئون الافريقيين وخيرتنى بين عضوية المؤتمر الوطنى الافريقى ورياسة مدينة جروتفيل ، ولما رفضت التنازل عن أى منهما ، أقالتنى السلطات من رياسة المدينة رغم أنى توليت هذا المنصب بالانتخاب لا بالتعيين .

---

١٢ – عندما تتحطم الأغلال

تبين للحكومة أن حملة التحدى ليست مجرد اضطرابات عابرة ، وانما هى حركة منظمة محددة الوسائل والأهداف . فنحن الآن فى شهر أكتوبر وقد مر على بدء الحركة أربعة أشهر ومع ذلك فهى فى عنفوانها بل انها تزداد قوة ، وتدفقت معها الاشتراكات على عضوية المؤتمر الوطنى الافريقى حتى قفز الرقم من سبعة آلاف مشترك الى مائة ألف .

وفى أوائل أكتوبر بدأت أعمال الشغب والاضطرابات فجأة فى مدن نيوبرايتون وبورت اليزابث ، وبادرت قوات البوليس لقمع الاضطراب ودارت بينهم وبين الاهالى معركة حامية قتل فيها عدد من الطرفين .

وفى أوائل نوفمبر ثارت اضطرابات فى جوهانسبرج قتل فيها بعض بعض الافريقيين ، وفى كمبرلى قتل ثلاثة عشر أفريقيا فى اضطرابات حول مشارب البيرة ، كما قتل عشرة فى ايست لندن .

ولم تكن خطتنا الالتجاء الى وسائل العنف ولكن ما أظهره البوليس من أعمال الاستفزاز تجاوزت كل حد ، ولم يطق الأهالى صبراً فأفلت الزمام وأريقت الدماء .

وكان المفروض أن يبحث سادتنا البيض عن أسباب هذه الاضطرابات فيعملون على تلافيها ، ولكن عميت بصيرتهم عن ادراك الحقيقة ، ولم يجدوا تفسيرا لما تقوم به الا أنه دليل على أنهم يعيشون بين جحافل من السود المتوحشين ، وكان رد الفعل مضاعفة القسوة وتشديد القبضة .

وأول ما فعلته الحكومة هو أن وجهت التهمة للقائمين بحملة التحدى بأنهم هم مثيرو الشغب والاضطرابات . ولما كنا بريئين من هذه التهمة فقد طالبنا بتشكيل لجنة تحقيق ، ولكن مستر سوارت وزير العدل رد قائلا : « ان الطريق الوحيد الذى يفهمه هؤلاء المخالفون للقانون هو أن

بضرب البوليس على أيديهم بشدة . واذا لم أستطع أن أقضى على العنف بعنف أشد فأنا لست جديرا بمنصبى كوزير للعدل » .

البرت لوتولى يصبح رئيسا للمؤتمر الوطنى الافريقى

عقد المؤتمر الوطنى الافريقى جلسة عامة فى ديسمبر **١٩٥٢** لاجراء انتخابات الرياسة . وقد طلبت الى وفود ناتال أن أرشح نفسى ضد الدكتور موروكا . وتم الانتخاب فى هدوء وكانت النتيجة فوزى برياسة المؤتمر الوطنى الافريقى .

١٣ — بعد حملة التحدى

كان رد حكومة مالان على حملة التحدى اصدار أوامر القبض على الزعماء وزجهم فى السجون ونفى بعضهم وتحديد اقامة الآخرين .

وكانت بجانب المؤتمر الوطنى الافريقى هيئة أخرى أطلق عليها اسم « المؤتمر الوطنى للبانتو » ويتزعمها بهنجو . كان هذا المؤتمر على ارتباط وثيق بالحكومة حتى لقد أعلن زعيمه بهنجو ان « البانتو يجب ان يعملوا بتوجيه من الأوربيين لأن هذه ارادة الله . حيث قال أن الجاهل يجب أن يسترشد برأى الحكماء » . ولذلك نجد أن مكتب الشئون العنصرية فى حكومة جنوب أفريقيا يقدم له منحة سنوية ، كما أن الصحافة (وهى بيضاء) كانت تفرد مكانا هاما لما يصدر عنه من بيانات .

وبجانب هذه الهيئة المارقة على أفريقيا والافريقيين كانت توجد هيئة أخرى تسمى « حركة الوحدة بين غير الأوربيين » . وهذه الهيئة كانت تشن هجوما متواصلا على الحكومة وعلى المؤتمر الوطنى الافريقى وعلى حركة المقاومة التى اضطلعنا بها ، ولكنها لم تخط خطوة عملية واحدة نحو الوحدة .

كانت غالبية أعضاء هذه الهيئة من الملونين ، ذلك أن هؤلاء الملونين كانوا منقسمين على أنفسهم بعضهم يؤيد الحكومة وبعضهم يناصبها العداء ، كذلك كانوا منقسمين فيما يتعلق بالتفوق العنصرى للجنس الابيض . كان بعضهم يعترض على نظرية تفوق البيض لأنها عقيدة تتنافى مع الأخلاق ، وكثير منهم كانوا يعارضونها لأنها لا تشملهم ، ولو أن البيض ضموهم الى صفوفهم لما كان لديهم أى اعتراض .

وهذا الفريق من الملونين كانوا فى حيرة من أمرهم فلا البيض يقبلونهم ، ولا هم يقبلون الاندماج فى بقية العناصر الاخرى من هنود وافريقيين لأنهم يؤمنون بوجود درجات من التفاوت بين العناصر المختلفة التى تكون سكان جنوب افريقيا .

لا أود أن أتحدث كثيرا عن هذه الفئة من الملونين ولكنى سوف أدعها وشأنها وأكرر مرة أخرى اننا نريد أن نبنى دولة فى جنوب افريقيا تعتبر كل أبناء البلاد مواطنين على قدم المساواة التام ، وفى هـذه الدولة تختفى النزعات العنصرية نهائيا .

كذلك اكتشفنا أثناء حملة التحدى أن الارهاب والقسوة يفعلان فعلهما فى النفوس الضعيفة وخاصة بين ذوى المناصب وقد كان لفصلى من رياسة مدينة جروتفيل صدى قوى بين الزعماء ورؤساء المدن .

ولقد حاولت السلطات اجبار كبير زعماء الزولو على أن يصدر بيانا بادانة حركة التحدى التى كنا نقوم بها ، ولكن الرجل والحق يقال رفض الاذعان لهذه التوجيهات ، ولا ننسى أنه لولا الغزو الاوروبى لكان اليوم ملكا على الزولو . وعلى الرغم من رفضه الاذعان فقد واصلت الحكومة الضغط عليه وتهديده بشتى الوسائل حتى رضخ الرجل أخيرا لطلبات الحكومة وأخذ يندد بحركتنا بل ويشيد بالتفرقة العنصرية . ونحن نرثى لحال هذا الرجل ، وعلى كل فان نظام الزعامة والزعماء فى جنوب افريقيا فى انهيار مطرد وسوف يذهب قريبا الى حيث لا رجعة .

هكذا بينت للقارىء مواطن الضعف فى حركتنا ولكن هذا لم يمنعها من أن تكون حركة قوية وأن تحدث أثرها على حكومة البيض ، أضف الى ذلك أنها أوجدت فى نفوس الافريقيين روح الكفاح ضد الظلم .

ومن الآثار التى خلفتهـا حملة التحدى فى المجتمـع الأوربى فى جنوب أفريقيـا نشأة حزب الأحرار واعتراضه على كثيـر من القوانين الجائرة التى تحد من حرية الافريقيين . كذلك اتخذ حزب الاحـرار خطوة كبرى جريئة وهى فتح باب عضوية لجميع العناصر التى يضمهـا اتحاد جنوب أفريقيا .

ومن مآثر حملة التحدى أنها كانت السبب المباشر فى ظهور حزب « مؤتمر الديموقراطيين » وهو الآن فى « اتحاد المؤتمرات » الذى يتكون من المؤتمر الوطنى الافريقى والمؤتمر الهندى لجنوب افريقيـا ومنظمـة الملونين فى جنوب افريقيا وأخيرا مؤتمر نقابات العمال .

١٤ – الحرمان من الحقوق المدنية

أتاحت لى زيارتى الى كيبتون فى يناير ١٩٥٣ الفرصة للاتصال بفروع المؤتمر الوطنى الافريقى خارج حدود ناتال ، ولما كنت قد أصبحت رئيسا عاما لهذه المنظمة فقد كان لزيارتى للكاب فائدة كبرى فى تزويدى بالمعلومات الصحيحة عن موقف منظمتنا فى هذه المنطقة . وفى أثناء عودتى مررت بفرع الحزب فى بورت اليزابث وهناك أدركت أن حركة المقاومة التى بدأناها لاتزال قوية فتية • وبعد عودتى من بورت اليزابث قمت بزيارة أخرى لاقليم الاورانج لتدعيم مركز المؤتمر الافريقى هناك .

وبينما كنت فى بلومفنتيى زارنى بوليس الامن وأبلغنى رجاله أنها مجرد «زيارة مجاملة» . ولما بلغت مدينة فيكسبورج اضطرتنى الظروف الى الاقامة بها أكثر من ثلاثة أيام . وبعد نهاية الأيام الثلاثة استدعانى المراقب الأوربى للمنطقة ، وسألنى عما اذا كان لدى تصريح لزيارة المنطقة ولما لم يكن لدى مثل هذا التصريح دفعت غرامة قدرها خمسة جنيهات مؤقتا الى أن يبت فى أمرى • وبعد منتصف العام صدر حكم بمنعى من دخول المراكز الكبرى فى اتحاد جنوب افريقيا مع منحى حرية التنقل فى غيرها •

وفى هذه الفترة أصدر هندريك فير فورد سلسلة من التشريعات تضع الافريقيين والملونين جميعا تحت رحمة حكومة البيض وكان من أخطر هذه القوانين القانون الخاص بتنظيم اقامة الافريقيين فى المدن .

ويقضى هذا القانون بأن الافريقيين الزائدين عن حاجة المدن يرحلون الى مزارع البيض ، وقانون اعادة التوطين وهو يخول الحكومة حق الاستيلاء على حقوق الملكية الخاصة بالافريقيين فى منطقة جوها نسبرج وترحيلهم الى الجهة التى تحددها السلطات ، على أن يعملوا فى أماكنهم الجديدة بصفتهم مستأجرين لا ملاكا .

وفى شتاء عام ١٩٥٤ انتهت مدة حرمانى من حق الانتقال وأتيحت لى فرصة لتحسين « سلوكى » ، ولكن ما أن أطلق سراحى حتى توجهت الى ويتنهاج قرب يورت اليزابث وهناك ألقيت خطابا فى المؤتمر السنوى لاقليم الكاب . وفى أثناء عودتى دعيت لالقاء خطاب افتتاح المؤتمر الهندى فى ديربان . وفى ديربان زارنى رجال القسم المخصوص وقدموا الى أمرا يمنعنى من الاشتراك فى الاجتماعات العامة وأمرا آخر بتحديد اقامتى فى ستانجر لمدة عامين .

---

١٥ – ميثاق الحرية

عقدنا اجتماعا عاما فى ميدان الحرية بمدينة صوفيا تاون شهده عشرات الألوف من أعضاء المؤتمر وأنصاره ومن رابطة شباب المؤتمر الوطنى .

وقد حضر هذا الاجتماع عدد كبير من الصحفيين الاجانب ، وتقدم أحدهم وهو أمريكى ووجه الحديث الى قائلا : كيف تزعم أنك مسيحى مع أنك تتعاون مع الشيوعيين ؟ وقد أجبته قائلا : « أنا لست شيوعيا ، بل أنا مسيحى سليم العقيدة ، أما عبادة الدولة كما هو الحال فى روسيا أو عبادة الفرد كما هو الحال فى ألمانيا النازية فأنا لا أرضى بها . تلك هى عقيدتى الدينية ، فان سألتنى عن عقيدتى السياسية قلت لك أنى أميل الى الأخذ بوجهة نظر حزب العمال البريطانى مع بعض تعديلات » . أنا أسلم بأن فى جنوب أفريقيا بعض الشيوعيين ولكنى لا أعلم مدى ارتباطهم بموسكو . أما موقف المؤتمر من الشيوعيين فهو واضح كل الوضوح . ان هدفنا الاول هو التحرر ، وليس لدينا متسع من الوقت للثرثرة حول الخلافات المذهبية ، واذا كنت أتعاون مع الشيوعيين فى المؤتمر فليس معنى هذا أنى أتعاون مع الشيوعية نفسها . وما دمنا جميعا جنودا فى معركة التحرير فلا مجال لأى نشاط آخر ولندع النظريات السياسية جانبا حتى ننتهى من المعركة الكبرى .

ومن هنا كان ردى على الصحفى الامريكى وهو ردي على كل من يعارض دخول عناصر مختلفة فى المعركة . لقد تعاون المسلم والهندوسى فى معركة التحرير وبعد ذلك افترقا ، وعملنا مع الشيوعيين من أجل التحرر لا يحمل أى معنى لاعتناقنا للشيوعية .

اننا فى ظروفنا الحاضرة عديمو الشخصية فى نظر البيض . انهم يدعوننا قائلين : ياولد ! ياكافر ! أيها الافريقى الساذج ! أيها الافريقى الشرير ! لسنا فى نظرهم أكثر من وحدات ضمن القوى العاملة أو اننا عنصر من عناصر « المشكلة الافريقية » .

وإذا كان هذا شأننا فكيف نترك المعركة الكبرى وأقصد بها معركة التحرر ونبحث فى أحزاب سياسية وخلافات مذهبية ؟

أعود الى موضوع الاجتماع فأقول انه بعد القاء الخطب وما تلاها من مناقشات قررنا عقد مؤتمر شعبى وحددنا له موعداً يوم ٢٦ يونيو ١٩٥٥ .
وفى اليوم المحدد لانعقاد المؤتمر الشعبى حضره أكبر عدد من ممثلى المنظمات المختلفة فى اتحاد جنوب أفريقيا باستثناء البيض طبعا .

وقد بدأت الديباجة بما يلى :

١ ـ نحن ، شعب جنوب أفريقيا نعلن للعالم أجمع أن :

١ ـ جنوب أفريقيا ملك لسكانها من بيض وسود وسمر وليس لحكومة أن تتولى السلطة الا بتفويض من الشعب .

٢ ـ شعب بلادنا قد سلب حريته وأرضه وأمنه على أيدى حكومة قامت على الظلم وعدم المساواة .

٣ ـ بلادنا لن تحقق الرخاء الا اذا عاش أهلها فى اخاء وتساووا فى الحقوق وفى فرص الحياة .

٤ ـ شعبنا يطلب حكما ديموقراطيا مؤسسا على ارادة شعبية حرة .
ومن أجل ذلك كله ، اتخذنا هذا الميثاق وقطعنا على أنفسنا عهدا بمواصلة النضال حتى تحقق ما تضمنه .

ويلى ذلك فقرات خاصة باشتراك الشعب فى حكومة البلاد وفى موارد ثروتها وتوزيع الارض على من يقومون بزراعتها .. الخ .

وقد كان للمؤتمر صدى قوى بلغ أقصى قرى اتحاد جنوب أفريقيا .
حتى صحافة البيض التى كانت تتعمد اغفال نشاطنا أخذت تخوض فى وصف ما جرى أثناء انعقاد المؤتمر وتنشر قراراته .

ولم تكن قرارات هذا المؤتمر مجرد عبارات منمقة ولكنها تحديد دقيق للمفاهيم ، فمثلا الحديث عن الحرية يقصد به اتاحة الفرصة أمام جميع

سكان جنوب افريقيا للاستمتاع بحياة كاملة ، والمساواة معناها الغاء الفوارق العنصرية وعدم سيطرة جنس على جنس آخر .

وفى شتاء ١٩٥٦ انتهت مدة تحديد اقامتى واستطعت أن ألقى خطابا فى الاجتماع السنوى للمؤتمر الوطنى الافريقى . وقد بدأت الخطاب بما يلى «يجب أن نواصل النضال سواء قيدوا حريتنا أو لم يقيدوها » ومضيت فى خطابى بين حماسة الجماهير وهتافها .

وفى يوم ٥ ديسمبر ألقى القبض على جروتفيل بتهمة الخيانة العظمى .

---

١٦ ـ بدء محاكمات الخيانة العظمى

كنت فى فراشى عندما طرق البوليس باب منزلى وفتحت لهم زوجتى باب المنزل ، وما أن رأونى حتى بادرنى أحدهم قائلا : ها قد جاء دورك: ثم أبرزوا أمر القبض على وأمرا آخر بتفتيش منزلى • وبعد أن تمت اجراءات التفتيش جمعوا الأوراق المشتبه فيها ووضعوها فى حقيبة ثم غادرنا المنزل •

لم أكن أتصور أن تهمتى هى الخيانة العظمى ، كما لم أكن أتصور أن هناك عددا كبيرا من المقبوض عليهم • ولكن تبين لى ذلك أخيرا عندما جمعونا فى المعتقل ، كنا بين عامل ومثقف وقسيس وتاجر ومسلم ومسيحى وهندوسى ووثنى وافريقى وهندى وملون . اذا فالمعركة لم تعد نضالا بين الأبيض والأسود وانما هى حركة مقاومة شاملة اشتركت فيها جميع العناصر والألوان ضد الرجل الأبيض وجبروته •

وفى اليوم المحدد للمحاكمة نقلونا فى عربات مقفلة الى ساحة المحكمة، وهناك سمعنا هتافا عاليا «نكوسى سيكيليل أى أفريكا ! فليحفظ الله افريقيا!» وهذا هو نشيدنا الوطنى • وفى أثناء المحاكمة استطاع محامونا بمهارتهم وقوة حجتهم أن يستصدروا أمرا من المحكمة بالافراج عنى بكفالة .

١٧ – السير الطويل

أود هنا أن أعود الى الوراء قليلا لأذكر حادثا وقع عند بدء التحقيق الابتدائى فى محاكمات الخيانة ، ذلك لأن هذا الحادث اجتذب أنظار العالم الى جنوب افريقيا .

فقد قررت احدى شركات الأوتوبيس التى تنقل العمال الافريقيين الى مراكز الصناعة فى أنحاء الاتحاد رفع أجور النقل ، ولما كانت غالبية العائلات الافريقية تعيش عند مستوى الكفاف فان هذه الزيادة فى أجور النقل تزيدها فقرا على فقر . لذلك قرر العمال الافريقيون مقاطعة سيارات هذه الشركة ، وكان فى مقدمتهم سكان الكسندرا الواقع فى ضواحى جوهانسبرج . والغريب فى الأمر أن العمال الافريقيين بدأوا يذهبون الى عملهم سيرا على الأقدام ، وانتشرت المقاطعة من الكسندرا حتى شملت المنطقة كلها بما فيها مدينة بريتوريا . وأشد ما أفزع البيض أن المقاطعة كانت تامة كاملة وأعلن العمال الافريقيون أنهم لن يتحملوا الاستغلال أكثر مما تحملوه .

وكان بعض هؤلاء العمال يتحملون مشقة السير عشرين ميلا فى اليوم على ألا يتنازلوا عما عقدوا العزم عليه من مقاطعة شركة الأوتوبيس .

وكان البيض يتوقعون ألا يمضى الافريقيون طويلا فى هذه المقاطعة لما تكلفهم من جهد لا يطاق . ولكن خاب فألهم واستمرت المقاطعة .

وقد ضاقت صحافة البيض بهذه المقاطعة فأخذت تنشر الشائعات بأن كثيرا من العمال واقعين تحت ضغط ارهابى من زملائهم وانهم لولا ذلك لأخذوا طريقهم الى الأتوبيس كالعادة ، ولكن هذا افتراء من الصحف فالاكراه والارهاب وسائل البيض وليست وسائل الافريقيين ، والواقع أن حركة المقاطعة كانت حركة تلقائية بعيدة عن التأثير أو الضغط أو التحريض .

ولما يئست الحكومة من انهاء المقاطعة كلفت البوليس باستخدام القوة ضد العمال القائمين بها على طول الطريق بين الكسندرا وجوهانسبرج ، واتخذ البوليس تصاريح الانتقال سلاحا يضرب به المقاطعين .

والمهم فى سرد هذه الحادثة هو أن شجاعة العمال أثارت اعجاب الجميع ، بل انها أثارت اعجاب كثير من البيض ، وقد أدركوا أن المسألة ليست مسألة أسود ضد أبيض ، وانما هى مسألة مواطن افريقى ضد ذوى النزعة التسيطرية •

كانت هذه المقاطعة حركة شعبية لا دخل للمؤتمر الوطنى الافريقى فيها ، ولكن ما أن وطئت أقدام شويمان وزير النقل الأرض بعد عودته من الخارج حتى أخذ يصدر التصريحات تلو التصريحات متهما فيها المؤتمر بأنه الذى حرض العمال على المقاطعة •

ولما طالت الحركة قل انتاج العمال وهنا جأرت الغرفة التجارية بالشكوى فتدخلت السلطات فى الأمر وعملت على فض المشكلة •

وقد أثبتت لنا حركة المقاطعة أنه من الحماقة توقع الخير من الحكومة أو من السادة البيض • كذلك أدى نشر أنباء حركة المقاطعة خارج حدود الاتحاد الى اهتمام العالم الخارجى بما يجرى فى جنوب افريقيا •

نحن معشر الافريقيين نرغب فى أن تسمع صوتنا للعالم الخارجى ، وهذا بخلاف حكامنا البيض الذين لا يريدون من هذا العالم الخارجى الا أن يعير حوادث جنوب افريقيا أذنا صماء ويقبل تفسيرهم للحوادث دون مناقشة •

١٨ — عودتنا مرة أخرى الى التجمع

ظهرت في ميدان حركة التحرير جماعة جديدة تسمي نفسها « ذوو النزعة الافريقية » ، والفرق بينها وبين المؤتمر الوطني الافريقي أن سياسة المؤتمر تهدف الى تجميع كل عناصر المقاومة ضد سيادة البيض ، وبذلك تتكون حركة المقاومة من الافريقيين والهنود والملونين ولكن ذوى النزعة الافريقية يسيرون على سياسة انفصالية فيستبعدون الهنود والملونين ، ويلخصون رأيهم فى أن المقاومة حركة افريقية خالصة وأن الهنود والملونين دخلاء عليها ، ويعززون هذا الرأى بحجة أن برنامج عام ١٩٤٩ كان خاصا بتنظيم حركة المقاومة بين الافريقيين وخدمهم • وردى على هؤلاء أننا لسنا فى عام ١٩٤٩ ولكنا مقبلون على عام ١٩٦٠ وأننا بذلك قد قطعنا شوطا كبيرا تجاوزنا فيه الحدود الافريقية الضيقة وأصبحت حركتنا تشمل جميع سكان جنوب افريقيا على اختلاف ألوانهم وعناصرهم ، وهذه بداية طيبة لقيام دولة فى جنوب افريقيا •

لا غرابة اذا فى أن وجد المؤتمر الوطنى نفسه وقد وقف موقف المعارضة من ذوى النزعة الافريقية على غير رغبة منه •

وقد أدى موقفنا الجديد من ذوى النزعة الافريقية الى صدام فى جهات متفرقة وخاصة فى الترنسفال • وعقدنا مؤتمرا لتصفية الموقف ولكن هؤلاء أكثروا من الصياح والجدل واتهمونى بأنى عميل لموسكو وأخيرا انسحبوا من المؤتمر دون أن يتم بيننا أى تصالح •

وقد كتبت مؤلفى هذا أثناء احتدام الخلاف بين المؤتمر الوطنى وبين ذوى النزعة الافريقية ولا أدرى ماذا تكون النتيجة • وعلى كل فقد حولت هذه الجماعة نفسها الى ما أطلق عليه « مؤتمر الجامعة الافريقية » ومن الواضح أن هذه المنظمة الجديدة سوف تصبح منافسا للمؤتمر الوطنى وأشد ما أخشاه أن تؤدى هذه المنافسة الى أضعاف حركة المقاومة التى تمت وثبتت

أقدامها فى جميع أنحـاء الاتحاد ، خاصة وأن العناصر البيضاء قد انتهزت فرصة الخلاف بيننا فأخذت تجمع صفوفها استعدادا لمعركتها القـادمة ضـدنا .

أنا لا أحب أن أوجه انتقادى الى مؤتمر الجامعة الافريقية ، ولكنى حتى اليوم لم أر منه الا الحيرة والتردد والتناقض . ان هذا المؤتمر الجديد قد اتخذ لنفسه مبدأ « افريقيا للافريقيين » فهل يقصد بذلك أن افريقيـا لسكانها الأصليين ؟ لو كان هذا قصده فانه يتعارض تعارضا تاما مع أهدافنا التى ترمى الى تذويب جميع العناصر فى دولة واحـدة هى دولة جنـوب افريقيا . أما اذا كان مؤتمر الجامعة الافريقية يقصد بالافريقيين معنى أعم وأشمل وأكثر تسامحا وواقعية فلا خلاف بيننا .

هناك نقطة خلاف أخرى بيننا وبين الجامعة الافريقية فى الوسائل . فهذا المؤتمر يقول ان وسائلنا فى الكفاح ينقصها التنظيم والتنسيق والتماسك، وأنه يجب أن نصل رأسا الى « صنبور الظلم » فنقفله . وهب أننا تمشينا مع هؤلاء فى عباراتهم المجازية ، فلن نصل الى الصنبور الا بعد أن نخـوض طويلا فى الميـاه القـذرة ، وناحية أخرى : ما هى الضربة القاضيـة التى نستطيع توجيهها رأسا الى الصنبور فتعطله نهائيا ؟ . أعتقد أن مؤتمر الجامعة الافريقية عندما ينتقل من الميدان النظرى الى الميدان العملى سوف يعجـز عجزا تاما عن توجيه مثل هذه الضربة القاضية .

ان هذه الفرقة والافتقار الى التنسيق يضعفان حركة المقاومة ويطيلان أمد الكفاح وانى لا أنسى يوم قمت بجولة فى المناطق الزراعية أثناء انتخابات المجالس الافريقية ، ولما اختلطت بالفلاحين الافريقيين الذين يعملون فى مزارع البيض ألفيتهم وقد استولى عليهم قنوط شديد وكأن التعاسة والبؤس هما المصير الذى لا مفر منه حتى الموت ، بل أخطر من هذا أنهم أصبحوا يفكرون بعقلية الرقيق الذى لا يملك من أمره شيئا . وليس هذا التبلد فى العاطفة والجمود فى التفكير قاصرا على رقيق الأرض فى مزارع البيض فقط ، فالافريقى بعد أن فقد أرضه وبالتالى ماشيته ـ اذ كيف تربى

الماشية على رقعة صغيرة من الأرض ـ لم يجد أمامه مايشغله فاستسلم لحظه العاثر .

ان مثل هذا الشعور باليأس الذى يخيم على رءوس الافريقيين يحتاج الى جهود جبارة لتبديده واحياء الأمل فى النفوس وبذلك تستطيع حركة المقاومة الوقوف على قدميها ، أما أن يدب الخلاف بيننا ونحن فى أول مراحل الجهاد فهذا أمر كريه سيىء العاقبة .

ومن نواحى الضعف الأخرى فى مجتمعنا الأفريقى الجهل بأساليب الادارة حتى الادارة المحلية نفسها والافتقار الى الوعى الوطنى بله السياسى . فكثير من الأفريقيين لايعرفون من أمور بلادهم الاالقليل ، وللبيض أساليب ماكرة ماهرة فى ابقاء الحالة على ماهى عليه .

ونقطة أخرى أود أن أحذر منها الأفريقيين وهى سوءفهم الأفريقيين المسيحيين لأصول العقيدة المسيحية . كثيرا ماكان مواطنى يخاطبوننى قائلين: لاتقلق ياسدى الزعيم ، فان الله سوف يمنحنا الحرية عندما يشاء » : وهكذا يلقى الأفريقى أخاه المسيحى فى التخلى عن المسئولية ويحيلها على آلهته أيضا .

ان هذا يتنافى مع أصول المسيحية التى تدعو الانسان الى العمل والسلام معا . ان الكنيسة المسيحية فى جنوب أفريقيا تستطيع عمل الكثير من أجل الأفريقيين فى هذه الناحية وأن تبث فيهم روح المسيحية الايجابية المنتجة التى تجمع بين العمل وأداء الواجبات الدينية .

ولا أقصد بقولى هذا أن تصبنا المسيحية فى قالب البيض فى جنوب أفريقيا ، فهؤلاء يكونون مجتمعا هو مجتمع المال والرخاء المادى أما الجانب الروحى فهو لديهم فى المقام الثانى . وشىء آخر فى هذا المجتمع الأوروبى فى جنوب أفريقيا وهو عبارة الدولة ، ولكن أى دولة ؟ انها الدولة البيضاء التى تمكنهم من رقاب الأفريقيين يذلونهم ويسخرونهم فى المزارع والمصانع تماما كما تسخر الماشية .

ومادمت أتحدث عن حركة المقاومة فلا يفوتنى أن أذكر تلك الظاهرة

الطيبة التي بدت في مجتمعنا الأفريقي في السنوات الأخيرة ، تلك هي اشتراك المرأة الأفريقية في الكفاح • أن الفضل في يقظة المرأة الأفريقية لايرجع فقط الى نشاط المؤتمر الوطنى الأفريقي بل الى سياسة العسف والجور التى اتبعتها حكومة البيض في تطبيق مبدأ التفرقة العنصرية ،وخاصة مايرتبط منها بشئون الأسرة •

ان المرأة الأفريقية أحست أن قوانين التفرقة العنصرية قد هاجمت الحياة العائلية هجوما عنيفا فلم تر بدا من المقاومة واعتبرت هذه المقاومة مسألة حياة أو موت لها ولرجلها ولأطفالها •

فقد كان للمرأة الأفريقية دور ايجابى منذ أمد طويل ، وانى لأذكر على سبيل المثال أن احدى الأفريقيات قادت الجيوش واقتحمت بهامستعمرة الأورانج وأصبح اسمها في الاقليم مصدر رعب وفزع • وامرأة أخرى سيطرت على عقول قومها حتى لقد استطاعت منعهم من العمل في انتظار نهاية العالم • وقبائل السوازى كانت تحكمهم ملكة منذ عهد قريب أما في قبائل الزولو فقد ظلت المرأة تلعب دورا سياسيا هاما الى حين قدوم البيض .

لا غرابة اذن أن تهب المرأة الأفريقية للدفاع عن بيتها وأسرتها • في عام ١٩٥٦ حاولت الحكومة ارغام الأفريقيات على الخضوع لنظام تصاريح المرور فما كان من هؤلاء الأفريقيات الا أن تجمعن في أفواج كبيرة تمثل المرأة الأفريقية في كل ركن من أركان الاتحاد وذهبن الى بريتوريا عاصمة الاتحاد • وكان رئيس الوزراء حينذاك مستر بجدوم فأخذ النساء يهتفن : « الويل لك يامستر بجدوم ، انك تنطح الصخرة » •

كذلك لعبت المرأة الأفريقية دورا هاما في حملة التحدي وفي معارضة قوانين تعليم البانتو عام ١٩٥٤ وفي معارضة قوانين تصاريح المرور عام ١٩٥٦ •

وفي عام ١٩٥٨ قامت النساء الأفريقيات بمظاهرات كبرى في جميع أنحاء الاتحاد •

وفي أواخر أكتوبر قام الأفريقيات بمظاهرة ضخمة في جوهانسبورج عبأ ضدها البوليس قوة كبيرة وتم خلالها القبض على ألفى أفريقية .

١٩ — الخدعة الكبرى

مات جوهان ستريجدوم رئيس وزراء حكومة الاتحاد فى النصف الثانى من سنة ١٩٥٨ وتولى رياسة الوزارة من بعده هندريك فرنش فيرفورد. وانتقال الحكم من ستريجدوم الى فيرفورد معناه مواصلة تطبيق التفرقة العنصرية الى أقصى درجة ممكنة ، فهى سياسة مقررة رسمها الحزب الوطنى لنفسه وسار عليها فى غير هوادة منذ عهد الجنرال بوتا حتى الوقت الحاضر . ولكن فيرفورد جاوز كل حد فى تطبيق تلك السياســـة العنصرية ، واذا كانت الكوارث قد صبت على رءوس الأفريقيين صبا طوال عهد الحزب الوطنى بالحكم فان مصيبتهم بحكومة فيرفورد أشد وأعظم .

ولن أستطيع هنا أن أسرد للقارىء تلك السلسلة الطويلة من التشريعات التى أصدرها فيرفورد ، وسأكتفى باثنين فقط من تلك التشريعات التى أراد بها فيرفورد أن يجعل الأفريقيين مجرد آلات تعمل لخدمة الرجل الابيض دون أن يكون لها أدنى حق فى كرامة انسانية بله العزة الوطنية .

أول هذه التشريعات القوانين الخاصة بتصاريح الانتقال . ان هـــذه القوانين ليست حديثة عهد فى جنوب أفريقيا بل انها لازمت الاستعمار الغربى منذ أن ثبت أقدامه فى البلاد ، ولكن تطورات الزمن والحاجة الاقتصـــادية كانت قد كسرت حدة هذه القوانين وخففت وطأتها بعض الشىء فجاء فيرفورد ليوقظ هذا الوحش النائم ويزيده قسوة وضراوة .

كانت المرأة الأفريقية معفاة من تصاريح الانتقال ولكن فيرفورد طبق عليها هذه القوانين ، شأنها فى ذلك شأن الرجل الأفريقى تماما ، لأنه يهدف الى التحكم فى الأفريقيين رجالا ونساء منذ مولدهم حتى وفاتهم .

ان قوانين تصاريح المرور سلاح فى أيدى الحكومة تستطيع به أن تقيد حرية انتقال الأفريقيين وش اء العمال بأتفه الاجور وتحديد اقامة الفرد

وتوريد عمال السخرة لمزارع البيض . والأفريقي الذي لايحمل تصريحا لا حق له في العمل ولا حق له في الانتقال ولا حق له في السير في الشارع بل ولا حق له في أن يخلو بنفسه في داره والفرصة الوحيدة التي يستطيع خلالها الحركة والتنقل هي وقت ذهابه الى السجن . أما الآثار الاقتصادية لقوانين المرور فهي غنم للرجل الأبيض حيث يجد بين يديه عمال السخرة في المزرعة والأجور التافهة في المصنع ، وهي في مقابل ذلك كارثة على دخل الأفريقي مابعدها كارثة .

والتشريع الوحشي الآخر الذي أعده فيرفورد هو قانون اعادة توطين الأفريقيين . ان هذا القانون يجعل الأفريقيين كالبدو الرحل وهذا قياس مع الفارق ، فالبدو ينتقلون من مكان الى آخر بمحض ارادتهم حيث يطيب المرعى ويتوافر الماء ، أما الأفريقيون «فينقلون» من مكان الى آخر طبقا لرغبة الحكومة ومشيئتها دون أن يكون لهم أي حق للاعتراض ، وهكذا لم يعد جنوب أفريقيا وطنا للأفريقيين وانما هو معسكر اعتقال كبير ينقلون فيه من قبضة الى أخرى . وتطبيقا لقانون اعادة التوطين نقل آلاف الأفريقيين من المدن الى النجوع المخصصة لهم ، لا بل نقلت مدن بأكملها الى هذه النجوع ومنها مدينة صوفيا تاون .

اني أذكر أغنية شعبية نغنيها نحن الأفريقيين . ونضمنها ماتنطوي عليه نفوسنا الحزينة من هم وتعاسة . وتلك هي الأغنية :

أين نحن يا أبناء أفريقيا

لا مقام لنا بأرضنا
فلنضرب في الأرض كحيوان ضال
ولكن الى متى نجوب الآفاق
يا له من عبء ثقيل «
ذلك الذي نحمله فوق أكتافنا !
فلنضرب في الأرض ثانية كحيوان ضال
الانجليزي عن يميننا
الأفريكانو (الهولندي) عن يسارنا .

والالمانى من ورائنا
فلنضرب فى الأرض ثالثة كحيوان ضال
ولكن الى متى نجوب الآفاق
يالهُ من عبء ثقيلٍ !
ذلك الذى نحمله فوق أكتافنا !

***

الخدعة الكبرى

أو قانون منح الحكم الذاتى للبانتو

أود أن أقف بالقارىء قليلا عند هذا القانون لا لأنه أكثر شرا من القوانين الأخرى ولكن لما فيه من خداع وتضليل .

عندما أصدرت حكومة البيض هذا القانون قالت انه الدواء الناجع لتلك المتاعب التى يشكو منها جنوب أفريقيا ، لأنه يحدد لكل عنصر فى جنوب أفريقيا مكانه أو بعبارة أخرى هو ماسمته الحكومة « انشاء بانتو ستان » . ولكن ماهو مشروع بانتو ستان ؟

لقد وقف الدكتور فيرفورد خطيبا فى البرلمان ليعلن للنواب بل وللعالم أجمع أن مايؤديه مشروع بانتوستان للبانتو فى جنوب أفريقيا هو نفس مافعلته بريطانيا للباسوتو فى باسوتولاند .

ولكن فى هذه التصريحات التضليل المطلق ، فمشروع بانتوستان يقسم جنوب أفريقيا تقسيما أفقيا الى شطرين ، ففى الشطر الأعلى البيض وبرلمانهم وحكومتهم ، وفى الشطر الأسفل الأفريقيون وعلى رأسهم حكم دكتاتورى ممثل فى شخصية وزير الادارة والتنمية لمجتمع البانتو .

ويساعد وزير الادارة هذا فى عمله وزير العدل ووزير البانتو وهؤلاء طبعا أعضاء فى وزارة فيرفورد . والغريب فى الأمر أن وزير البانتو للادارة والتنمية ليس مسئولا أمام البرلمان بل هو يملك سلطة مطلقة فى ادارة شئون الأفريقيين ، والبانتوستانيون هم رعاياه ، وله أن يفعل بهم مايشاء . ولقد ألغى فيرفورد كل صلة بين الأفريقيين وبرلمان البيض حتى النواب

والشيوخ البيض الذين كانوا يمثلون الأفريقيين فى هذا البرلمان قد أبطل عملهم .

ويقضى مشروع بانتوستان بألا يخضع وزير البانتو الى أى رقابة أو سلطة خارجية وهو بهذا يتحكم فى رقاب عشرة ملايين دون أن يسأله أحد عما يفعل .

ان هذا المشروع يعود بالأفريقيين الى النظام القبلى القديم فى أحط صوره ، بل ان السلطات المخولة لوزير ادارة البانتو تفوق ما اتخذه الملك شاكا الطاغية لنفسه من سلطات .

وليس فى هذا المشروع أى مظهر من مظاهر الحكم الديمقراطى فالزعماء يختارهم الوزير وأعضاء المجالس المحلية يعينهم الوزير . والغريب بعد كل مابينت لك أن هذا المشروع يسمى « قانون الحكم الذاتى للبانتو » .

كانت حكومة الحزب الوطنى قد عرضت مشروع هذا القانون على الأفريقيين قبل اقراره ولكن كان نصيبه الرفض الاجماعى ، وهنا انفردت بالعمل دون أخذ رأى أحد ، اللهم الا أذنابها من الزعماء الذين لا هم لهم الا ارضاء الحكومة حتى تبقيهم فى مناصبهم .

ورب معترض يقول ان مشروع بانستان يتيح للأفريقيين نصيباً أكبر من الأرض ، ولو كان الأمر كذلك لقبلناه على علاته حتى نضمن الكفاف لبنى جلدتنا ولكن للأسف لا يتعرض المشروع للنسبة الحالية وهى ١٣ ٪ فقط لجميع الأفريقيين الذين يبلغون ٧٠ ٪ من سكان البلاد .

ولنتصور القارىء أن مشروع بانتوستان الذى أعدته حكومة البيض « لمصلحة » الأفريقيين ومنحهم الحكم الذاتى ، لم يشترك فيه شخص واحد فقط من البانتو .

وأعلنت حكومة جنوب أفريقيا أنها سوف تنشىء صناعات على حدود المناطق المخصصة للأفريقيين برا منها بهؤلاء وعطفا عليهم . ولكنه فى الواقع عطف الذئب على الحمل ، فرجال الصناعة البيض يعلمون أن مثل

هذه المشروعات الصناعية سوف تتيح لهم الحصول على اليد العاملة بأرخص الأجور بل وبلا أجور .

ان منطقة بانتوستان سوف تكون موطنا للفقر والمرض ، وهى الحظيرة التى تضم تلك الحيوانات العجفاء من الأفريقيين وأبنائهم ونسائهم وهى مأوى لكل من لاترغب الحكومة فى بقائه فى المدن ، وأخيرا هى صندوق القمامة تلقى فيه حكومة البيض بحثالة المجتمع وقاذوراته . يا ويلنا فى وطننا من حكم البيض !

والفكرة التى ترمى اليها الحكومة من وراء مشروع بانتوستان هى أن تمحو الأفريقيين نهائيا من خريطتها السياسية ، وتتظاهر أمام العالم بأن الأفريقيين قد اختاروا حكم أنفسهم بأنفسهم وأن الحكومة منحتهم الحكم الذاتى تحقيقا لهذه الرغبة .

لقد أذاع وزير خارجية جنوب أفريقيا على العالم أن النظام الجديد خطوة نحو الاستقلال وأيد أقواله هندريك فيرفورد رئيس الوزراء ، ولكن من ناحية أخرى أعلن الدكتور ايسلتى وزير شئون البانتو أن نظام الحكم المحلى الذى منح للبانتو لن يؤدى بهم الى الاستقلال الذاتى .

ان هذا المشروع خدعة كبرى ، وأنا لست ممن يلجأون للعنف أو يهددون به . ولكننى أعتقد أن بنى قومى عندما يدركون مافى هذا المشروع من خداع وتضليل فانهم سوف ينقلبون على الحكومة أى منقلب .

انك لاتستطيع أن تخدع الناس جميعا فى كل الأوقات .

ومشكلة أخرى باقية وهى مشكلة ستة ملايين من الأفريقيين يعيشون فى المدن . ولو افترضنا أن بانتوستان سوف تكون « جنة عدن » كما تزعم حكومة البيض فكيف يطيب العيش لأربعة ملايين فى « جنة عدن » على حين أن ستة ملايين من أخوانهم يتضورون جوعا فى المدن ؟

ان تنفيذ مشروع بانتوستان فيه انتحار بطىء للأفريقيين ، واذا فكروا فى المعارضة فسوف يحصدهم رصاص البيض حصدا ، وقد تخف بلوانا لو أن العالم المتمدين كف عن تزويد حكومة القتلة والسفاحين بالأسلحة قبل أن تقدم على مجزرة بشرية .

٣٠ — أين طريق الحرية

من الصعب التكهن بنهاية معركة الحرية . فاذا جعلنا كل اعتمادنا على مانستطيع القيام به ، وحدنا فالحرية قادمة لاشك فيها » ولكن موعـدها قد يطول ، ذلك أن البيض المسيطرين قد استعدوا لمعركة فاصلة ، وكلما طال بهم الأمد عمدوا الى مزيد من العدوان الوحشي وانتهـاك الحرمات ومعسكرات الاعتقال والارهاب والقتل تحت ستار القانون .

وعلى الرغم من كل ماذكر فان جنوب أفريقيا البيضاءقدأدركتأخيرا أنها لاتملك كل مفاتيح المستقبل.حاولتالاستعلاء والانفصاليةولكنهاوجدت نفسها أمام قارة تستيقظ سراعا من سباتها الطويل ، كما أحست أنها فيعالم يراقب حركتها عن كثب ، وأن ما يحدثخارج حدود جنوبأفريقيا يتردد صداه داخل هذه الحدود . ولهذا فاننا نحن الافريقيين نراقب مايثور في البلاد الأخرى منسخط علىالاستعمار مراقبة دقيقة، وكلما اشتد السخط في ناحية من نواحي المعمورة قويت في نفوسنا الآمال .

ولكن ، هل معنى هذا أننا ضد جنوب أفريقيا ؟ هـذا غير معقـول فمحال أن يظهر المرء الشماتة في وطنه ، وانما نحن ضد سيطرة البيضعلى هذا الوطن .

نحن لاندعو البلاد الأخرى لشن حرب على البيضولانريدأنندخل في مؤامرات سوداء ضد الدول الغربية ، ولكننا على يقين من أن يثورفي البلاد الأخرى من نفور سوف يكون ذا أثر حاسم في تقصيرفترةالاستعباد واراقة الدماء الوطنية .

قد تقبل هذه البلاد المغلوبة على أمرها المهادنة والملاينة وترضىبكلمة طيبة يسرها دبلوماسي في أذن رئيس أو زعيم ، ولكن هذه الوسيلة لاتثمر مع حكام جنوبأفريقيا البيض . أنالطريق بينالافريقيين وبينسادتهم

البيض فى حكومة جنوب أفريقيا أصبح واضحا ، فهناك البطش وهناك العنف وهناك الظلم والاجحاف وهناك اضطهاد الزعماء الافريقيين الواحد تلو الآخر ، ولكن حركة التحرير لن تقف ، وهنا ينتقل الموقف بين العصرين من سيىء الى أسوأ .

لقد سمعنا فى المحافل الدولية بفكرة مقاطعة حكومة جنوب أفريقيا اقتصاديا ، وقد يكون فى ذلك ضرر محقق للأفريقيين ، ولكن لامانع لدينا من تنفيذ المقاطعة اذا كانت تقرب اليوم المنشود ، يوم ينتهى تحكم الانسان فى الانسان . من المؤكد أننا سندفع الثمن غاليا ولكنا مع ذلك على استعداد لأن ندفع عن طيب خاطر .

ومن المحزن حقا أن الغالبية العظمى من العناصر البيضاء فى جنوب أفريقيا مصممة على ألا تدع الأمور تتطور بطريق سلمى ، فقد أصمت هذه العناصر آذانها عن كل دعوة للتفاهم ولذلك فاننا قد ألغينا من قاموس نضالنا عبارات التصالح والتفاهم .

ان حركة التحرير التى قمنا بها ازدادت قوة وعنفوانا بفضل ماتلقاه من تأييد من بلاد صديقة سبقتنا الى التحرر بعد الحرب العالمية الثانية مثل الهند وغانا .

ولقد كان للهند موقف فى الأمم المتحدة بالنسبة للأفريقيين فى الاتحاد تستحق عليه كل ثناء ، أما فى أفريقيا فطالما كانت غانا الصغيرة منارا يهتدى بضوئه فى دياجير النضال .

ان مؤتمر أكرا الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٩٥٨ كان قوى الأثر فى نفوسنا بقدر ماكان شديد الوطأة على البيض فى جنوب أفريقيا . ان هذا الاجتماع الذى ضم شعوب أفريقيا المستقلة طالما كان حلمايراودخيالنا وهاقد تحقق الحلم ولو أننالم نستطع أن نساهم فى المؤتمر بنصيب ، وذلك لأن الظروف المحيطة بنا فى الاتحاد حالت دون ارسال وفد يمثلنا فى المؤتمر .

أما مؤتمر الشعوب الأفريقية فهو هادينا ومرشدنا .

ونحن حريصون كل الحرص على الاحتفال بيوم أفريقيا ، ولقد استطعنا أن ننظم اجتماعات في طول البلاد وعرضها للاحتفال بهذا اليوم المشهود الذى تعتبره حدثا جليلا فى تاريخنا ، لقد وقفت خطيبا فى ذلك اليوم فى ديربان ، وذكرت بنى قومى من الأفريقيين بمؤتمر برلين الذى اتفقت فيه الدول الغربية على اقتسام أفريقيا ، وكيف أن بعض هذه الدول بدأت اليوم تدرك مغبة ما ترديت فيه من أخطاء ولكن بعد فوات الأوان .

خاتمــــة

ان مهمتنا لم تبلغ بعد نهايتها المنشودة ، فجنوب أفريقيا حتى اليــــوم ليست وطنا لأبنائها وبناتها من الأفريقيين .

لقد كانت جهود البانتو طوال حقب التاريخ اذابة الفوارق العنصرية والحواجز القبلية ، واذا كنا اليوم نسعى لاذابة تلك الفوارق بين الأبيض والأسود والأسمر فليس هذا بدعة فى تاريخنا ، انما هو امتــــداد لذلك التاريخ ، واذا ماحققنا الخطوة الأولى اتجهنا كلية الى الاندماج فى تاريخنا . اننا نتطلع الى الأمام . الى حضارة أفريقية تتخذ مكانها تحت الشمس مــع الحضارات التاريخية الكبرى من صينية ومصرية وأوروبية .

وليس من الضرورى أن تكون حضارة « سوداء » ولكن لابد من أن تكون حضارة « أفريقية » .

انها أمنية صعبة المنال ، وقد لايبدو تحقيقها ماثلا فى الأفق القريب ، ولكن كل من سار على الدرب وصل .

اننا نمد أيدينا الى من يستجيب لدعوتنا . ترى ، هل يستجيب جيراننا البيض الى دعوتنا ؟ وهل يقبلون مصافحة هذه اليد السوداء ؟

لا أعتقــد ذلك فالدكتور فيرفورد ورفاقه مشغولون برسم الخطط لتفادى النهاية المحتومة .

فلندعهم وشأنهم ولكن النضال الأفريقى يجب أن يسير قدما الى غايته العظمى ، تلك هى اعادة بناء أفريقيا من جديد .

أنا لا أخشى الموت ، ولكنى أود أن يهبنى الله القوة والشجاعة حتى أرى أفريقيا تقيم أسس صرحها الشامخ .

مايبويس أى أفريكا ! أقبلى يا أفريقيا ، أقبلى !

الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد ــ روض الفرج
تليفون : ٤٥٢٤٦ ــ ٤٥٤٠٥ ــ ٣١٦٢٥



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥